حسن الصفار

رؤى الحياة
في نـهج البـلاغة

الطبعة الرابعة
(١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً ﴾[1] .

---

[1] سورة الأحزاب: (الآية ٣٩).

مقدمة

ينتمي إلى الأمة الإسلامية أكثر من مليار نسمة. تحتلّ هذه الأمة مسافات واسعة في أهمّ قارات العالم: آسيا وأفريقيا وبعض أوروبا، وتحظى مواقعها بإستراتيجية عظيمة.

تشرف على أكثر المحيطات والبحار العالمية كالمحيط الهندي والأطلسي والبحر المتوسط والبحر الأحمر.

تتحكّم في أهمّ الممرّات والمضائق الاستراتيجية كقناة السّويس ومضيق هرمز.

تعتبر بعض دولها من أوائل الدُّول المصدّرة للنفط كما تمتلك أكبر مخزون من بترول العالم حيث يبلغ احتياطي البترول لدى الأمّة الإسلامية (٦٠%) من الاحتياطي العالمي للبترول، ولديها ثلثا من احتياطي العالم من الفوسفات.. ونسبة كبيرة من النّحاس والحديد والمنغنيز.. بالإضافة إلى أراضيها الخصبة المعطاءة..

هذا وجه..

وأمّا الوجه الآخر:

فلا يزال العديد من أراضي الأمّة الإسلامية ترزح تحت الاحتلال الاستعماري كفلسطين والجولان وكشمير.

تتقاسم الدّول الاستعمارية الكبرى النُّفوذ في معظم الدّول الإسلامية.

لا تتمتّع هذه الأمّة بأيّ اكتفاء ذاتي في أيّ مجال من مجالات الحياة فهي تستورد السّلاح والثياب والآلات واللحوم وجميع المواد الغذائية.

رغم امتلاك الأمّة لتلك الثّروة العظيمة، لا تزال أكثر مجتمعاتها تعيش البؤس والحرمان والفقر. فهناك ملايين العوائل تحتضنهم الخيام والأكواخ.

وتستجدي الأمّة حتى أبسط الخبرات والكفاءات العلمية والتكنولوجية حتى في مجال تحلية المياه والزّراعة وتربية المواشي، في الوقت الذي تهاجر فيه أكثر الأدمغة والكفاءات العلمية من أبناء الأمّة إلى شتّى الدّول الأخرى، والأرقام التّالية التي وردت في ورقة صدرت مؤخّراً عن التّنمية البشرية في العالم العربي أعدّها المستشار الخاص لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية تتحدّث عن شيء من معاناة ومآسي الشُّعوب المسلمة:

- فحسب الإحصائيات التي وردت في هذه الورقة فإنّ (١٥%) من العرب لا يتوقّع لهم الحياة أكثر من سنّ الأربعين.
- (٦٠مليون) من العرب البالغين أمّيون.

- (٥٤مليون) عربي لا تصلهم المياه الصّالحة للشُّرب.
- (٢٩مليون) عربي لا يتمتّعون بالخدمات الصحّية الأساسية مثل العيادات الرّيفية والصحّة الوقائية.
- (١٣%) من العرب البالغين يعانون من البطالة بنسبة تفوق مثيلاتها في أقاليم أخرى.
- (٥٠مليون) عربي يتنشّقون هواءً ملوّثاً.
- (٥ملايين) طفل تحت سنّ الخامسة يعانون من سوء التّغذية.
- (٤ملايين) طفل غير ملتحقين بالمدارس.
- نسبة وفيات الأمّهات أثناء الحمل والــــــولادة(٣٨٠) لكلّ مائة ألف ولادة، وذلك ضعف النّسبة في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريــبي وأربعة أضعاف النسبة في شرق آسيا.
- (٥٠%) من النساء العربيات البالغات أمّيات.
- صادرات الدّول العربية وعدد سكّانها (٢٣٦مليوناً) غير البترولية تساوي صادرات فنلندة وحدها، وعدد سكّانها خمس ملايين.
- سيزيد نصيب الفرد العربي من الواردات الغذائية عام(٢٠٠٠) من(١٠٠دولار) سنوياً إلى (٣٠٠ دولار) سنوياً، وهذا يعني أنّ اعتماد العالم العربي على استيراد الغذاء سيتضاعف ثلاث مرّات.
- سجّل عقد التّسعينيات للمنطقة العربية جموداً اقتصادياً، وانخفاض دخل الفرد بحوالي(٤,٥%) سنوياً، وهذه نسبة فاقت نسبة الانخفاض في مختلف مناطق العالم بما في ذلك أفريقيا وجنوبي الصّحراء[1].

حينما ترتسم أمامك هاتان الصُّورتان المتناقضتان.. فماذا سيكون انطباعك وموقفك؟!

لاشكّ أنّك تُصاب بدهشة بالغة لهذا الواقع الذي تعيشه الأمة، وستحاول البحث والتّفتيش لعلّك تعثر على الأسبابِ التي صاغت هذه المعادلة المتناقضة المدهشة!!

وسوف لا تجد أيّ سبب مادي يسوّغ هذا الواقع، خاصّة وأنّ هناك أمماً أخرى تعيش معنا على وجه هذا الكوكب بإمكانيات أقلّ وطاقات أبسط، ولكنّها تحتلّ مستوىً أفضل من الحياة، وتتمتّع بكلّ مقوّمات التقدّم والازدهار كاليابان مثلاً.

---

[1] [مكافحة الفقر فرصة للاستثمار في المستقبل]: راغدة درغام، مقال في جريدة[الحياة]:(١٥/أغسطس/١٩٩٧م/ص١٥).

أمّا السّبب الحقيقي والواقعي لهذا التخلّف العميق الذي يلفُّ الأمّة فهو عدم امتلاك هذه الأمّة لبرنامج عمل ولخريطة سلوك في هذه الحياة، ولذلك فهي لا تعرف دورها ولا تدرك حجم إمكانياتها، ولا تدري كيف يجب أن تتصرّف؟؟

فهي أشبه بطفل حدث السنّ مات عنه أبوه وخلّف له ثروة طائلة وأموالاً ضخمة، ولكنّه لا يعرف كيف يتصرّف في هذه الثّروة ولا كيف يستثمر هذا المال، وكيف يُسعد حياته، وتدريجياً تتلاشى تلك الثّروة لسوء تصرّفه وتـــلاعـــبـــــه وتبذيره، ويبقى جاهلاً فقيراً ليس له كرامة ولا كيان.

إنّ أيّ أمّة تحتاج إلى رؤى معيّنة وبرامج خاصّة تسير على ضوءها في درب الحياة، والأمة التي لا تمتلك رؤى وبرامج حياتية تبقى في قوقعة الجهل وأوحال التخبّط.

ويشترط في تلك البرامج والرُّؤى أن تكون منبثقة من واقع الأمّة وتاريخها، حتى تتلاءم وتتفاعل معها وتكون قادرة على استثارة طاقاتها وتفجير مواهبها، وبالتّالي تحريكها ودفعها للأمام.

أمّا إذا كانت تلك البرامج والرُّؤى مستعارة من أُممٍ ومجتمعات أخرى تختلف في واقعها وظروفها وتاريخها عن الأمّة اختلافاً جذرياً فستسبّب هذه الاستعارة والاستيراد مضاعفات خطيرة وانتكاسات هائلة.

فالشّخص الذي يلبس نظّارة لا تنسجم مع مستوى نظره ما الذي سيحدث له؟

ببساطة ستُشَوَّشُ أمامه الرُّؤية فقد يرى الأشياء معكوسة أو أكبر أو أصغر من حجمها، وقد يرى الواحد اثنين أو أكثر! والأخطر من كلّ ذلك أنّ عينه تكون معرّضة لـــمـــزيد من الضّعف والمرض.. أليس كذلك؟.

ونفس النّتيجة ستحصل للأمّة التي تستعير برامج تتناقض مع أصالتها وواقعها.. حيث ستكون رؤيتها للحياة حينئذٍ قلقلة مشوّشة وغير سليمة.. وسوف لا يسبّب ذلك بقائها على حالة التخلّف فقط بل ويقضي على عوامل قوّتها ويهدر طاقاتها.

وهذا هو بالضّبط ما حدث للأمّة الإسلامية، وهو السّبب الأساس في تخلّفها وتأخّرها.

فحينما أفاقت أجيال الأمّة ـــ أخيراً ـــ على نفسها، وأدركت سوء واقعها وحياتها، ورأت التقدّم الباهر الّذي حقّقته الشُّعوب الأخرى، واكتشفت الثّروات الطّائلة التي كانت تختبئ تحت أقدامها، عندها كانت هذه الأجيال بحاجة ماسّة إلى برنامج عمل للاستفادة من تلك الثّروات الضّخمة للتخلّص من واقع التخلّف وللالتحاق بركب الصّناعة والمدنية والتقدّم.

والدُّول الاستعمارية الكبرى لا يسرُّها بالطّبع أن تكتشف الدُّول النّامية طريق التقدّم والارتقاء، بل تسعى لعرقلة مسيرتها وزرع طريقها بالأشواك والعقبات لتبقى خاضعة لنفوذها محتاجة لخبراتها.

وهنا وجدها الاستعمار فرصة لا تقدّر بثمن.

فأجيال الأمة تبحث عن برنامج لحياتها، وعلى مدى سلامة هذه البرامج سيتوقّف مستقبل ومصير هذه الأمة فلماذا لا يغتنم الاستعمار الفرصة، ويقدّم لهذه الأجيال الجديدة برامج ورؤى، تجعل مستقبلها كما يريد هو، وكما تقتضي مصالحه وأغراضه؟

وهذا ما وقع بالفعل.

فبالوسائل الإعلامية الضّخمة ، ومن خلال الجامعات والمعاهد العلمية وبالأساليب المضلّلة الخاضعة، قدّمت لأجيال الأمّة النّاشئة شتّى الرُّؤى والبرامج والخرائط الحياتية التي تتناقض مع أصالة هذه الأمة ولا تنسجم مع واقعها وظروفها، ممّا سبّب حدوث هذا الخليط المتناقض والاتجاهات المتباينة في أوساط الأمّة، وجعل رؤية الأُمّة قلقة مشوّشة.

ولكن لماذا حدث ذلك؟؟

هل لأنّ الأمة الإسلامية لا تمتلك برامج ذاتية ولا رؤى حضارية خاصّة، حتى أصبحت أبنائها بحاجة إلى استيراد برامج الآخرين وأفكارهم أم ماذا؟؟

في الواقع إنّ الأمّة الإسلامية تمتلك أروع مبدأ وأضخم تراث عرفته الإنسانية في تاريخها الطّويل.

إنّه المبدأ الإسلامي والتراث الإسلامي الذي يحتوي على أفضل البرامج وأوسعها في جميع حقول الحياة حتى أنّ الإنسان ليندهش كثيراً من ضخامة هذا التراث وثرائه، واستيعابه لكلّ جوانب الحياة والنّشاط الإنساني، ولو أنّنا قمنا بجولة علمية في ربوع تراثنا العظيم لوجدنا فيه كلّ البرامج المطلوبة وفي جميع المجالات.

ففي كتاب واحد من كتب التراث الإسلامي اسمه [وسائل الشيعة] يوجد(٤٠٨٢حديثاً) حول العلاقات الزوجية فقط، و(٢٤٢٩حديثاً) حول طريقة الأكل والشُّرب، و(٤٦٤حديثاً) حول السباحة ونظافة الجسم، و(٨٢حديثاً) حول تنظيف الأسنان فقط! و(٧٤٤حديثاً) حول الملابس والثياب، و (٢٠٣٨حديثاً) حول التجارة، وهكذا سائر المجالات والتّفاصيل في شؤون الحياة.

ولكن هذا التراث الضّخم العظيم يُعاني من عدّة مشاكل جعلته عاجزاً عن تلبية مطالب الأمّة في العصر الحديث، وبذلك حرمت الأجيال الجديدة من نعمة هذا التراث وثرائه.

فما هي هذه المشاكل؟

١ ــ إنّ التراث الإسلامي من حيث الصّياغة والأسلوب متأثّر بظروف نشأته وزمان انتشاره، فهو بحاجة إلى التّجديد في الصّياغة وتحديث الأسلوب في كلّ عصر بما يتلاءم ومعطيات ذلك العصر، وهذا ما لم يتوفّر لتراثنا العزيز في هذا العصر.

٢ ــ ومن ناحية الإعلام والنّشر يعاني تراثنا من فقر مدقع في هذا المجال.

٣ ــ هناك بعض رواسب التعصّب الطّائفي والميول السّياسية لا تزال تقف حاجزاً دون الاستفادة من هذا التراث العظيم.

وستبقى أجيالنا تحسّ بالفراغ والحاجة إلى أفكار الآخرين، وستظلّ الفرصة متاحة أمام الاستعمار لينفذ من خلالها إلى عقولنا وأذهاننا.. إلى أن نصمّم على العودة إلى تراثنا الإسلامي ودراسته دراسة علمية جادّة، لنستخلص منه البرامج التي نحتاج إليها في مشوار الحياة.

ويأتي في طليعة التراث الإسلامي كتاب[نهج البلاغة] الذي يحتوي على مجموعة رائعة من خطب ورسائل وكلمات الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام).

ورغم أنّ [نهج البلاغة] حظي بكثير من الاهتمام من قبل الشُّرّاح والمؤرِّخين، ولكنّه لم يزل في حاجة للدّراسة الموضوعية التي تستخرج منه رؤى متكاملة وبرامج مفصّلة، تملأ هذا الفراغ الخطير الذي تعاني منه أجيالنا، وتكون قادرة على توجيه الأمّة ودفعها في طريق التقدّم والازدهار.

وهذا الكتاب هو مجموعة من المحاضرات أُلقيت على ثلّة من الشّباب والمثقّفين أثناء عطلة(١٩٧٧م) في محاولة لدراسة[نهج البلاغة] دراسة موضوعية متكاملة.

أرجو أن أُوفّق لمواصلة هذه الدّراسة كما أرجو أن تكون محفزة لمفكّري الأمة من أجل تعميق هذه الدّراسات وتعميمها.

والله ولي التوفيق.

حسن الصفّار

الإمام علي(ع) ونهج البلاغة

يقول الإمام علي (عليه السّلام):

« أَيُّهَا الناس: إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَواعظَ الَّتي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بهَا أُمَمَهُم، وَأَدَّيتُ إِلَيْكُمْ مَا أدَّت الأَوْصياءُ إلى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بسَوْطي فَلَمْ تَسْتَقيمُوا، وَحَدَوْتُكُم بالزَّواجرِ فَلَمْ تَسْتَوْسقُوا. للهِ أَنْتُمْ.. أَتَتَوَقَّعُونَ إمَاماً غَيْري يَطَأُ بكُمُ الطَّريقَ وَيُرْشدُكُمُ السَّبيلَ؟ »[1].

أرى أنّه من اللاّزم علينا قبل الدُّخول في دراسة مواضيع [نهج البلاغة] أن نتوقّف قليلاً لنلقي أضواء كاشفة على حياة الإمام التي انعكست ولاشكّ على نهجه، وعلى [نهج البلاغة] وأهميّته وقضاياه.

أمّا الإمام فطالما سمعنا عن حياته التّاريخية كولادته وحروبه ومقتله، وسمعنا عن معاجزه وفضائله، ولكن الشّيء الذي لا نسمع عنه كثيراً، هو الجوانب النّضالية والرِّسالية من حياة الإمام.

فالإمام يوم كان شاباً ويوم أصبح كهلاً، وبعد أن تخطّى مرحلة الكهولة.. ما هي أبرز ملامح حياته في كلّ مرحلة من هذه المراحل حتى نقتدي به؟

الإمام شابّاً:

في مرحلة الشّباب كانت أهمّ سمات حياته:

أولاً ــ التّفتح: وأعني به الاستعداد لتقبُّل الرّأي الجديد والفكرة الحديثة، ومسارعته للعمل التغييري غير متقيّد بتقاليد المجتمع ولا مبالٍ بطريقة الآباء والعائلة، فما دام الرَّأي الجديد حقّاً، والفكرة الحديثة صحيحة، فيجب المبادرة لاعتناقها والعمل من أجلها. وهذا ملحوظ في سرعة تقبُّل الإمام للإيمان ومبادرته في العمل من أجل الإسلام في أوّل لحظة من دعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لذا اعتبر العلماء أنَّ من أبرز خصائص الإمام علي (عليه السلام) سبقه للإسلام والصّلاة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) حيث تواترت الرّوايات الصّحيحة بذلك.

وقد أورد الإمام الحافظ النّسائي (توفي: ٣٠٣هـ) عدّة روايات في أوّل فصل من كتابه [خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب]، ومن طرق عديدة حول هذه الخصيصة.

وعن سلمان الفارسي (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:« أوّلكم وروداً عليَّ الحوض أوّلكم إسلاماً علي بن أبي طالب»[2] .

---

[1] [نهج البلاغة]: (خطبة رقم: ١٨٢).

[2] [بحار الأنوار]: محمد باقر المجلسي(ج٣٨/ص٢٧٠) مؤسسة الوفاء بيروت ــ الطبعة الثانية (١٩٨٣م).

وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو آخذ بيد علي يقول: « أنت أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني يوم القيامة »[٣] .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري (رضي الله عنه) قال: « بُعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثّلاثاء »[٤] .

وحينما سُئل: يا علي هل استشرت أباك عندما آمنتَ بمحمَّدٍ؟! أجاب: وهل استشار الله أبي حينما خلقني؟[٥] .

ثانياً ــ الطّموح: فالإمام لم يكن يفكّر حينما كان شاباً في مستقبله الشّخصي وكيف يُنهي دراسته ويتحصّل على وظيفة ويحظى بزوجة جميلة ويتوفّر له سكن مريح ــ كما يفكر أكثر شبابنا حالياً ــ! إنما كان الإمام يفكّر في مستقبل رسالته وفي أوضاع أمته، وكان لديه طموح كبير أسمى من الطموح الشّخصي، كان طموحه أن يكون الرّجل الثاني في قيادة العالم نحو السّعادة والتقدُّم رغبة في رضوان الله وثوابه. فمنذ البداية، وحينما أمر الله تعالى نبيه محمداً (صلى الله عليه وآله وسلّم) بإنذار عشيرته، بقوله تعالى:{ **وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين** }[٦] دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بني عبد المطّلب، وهم يومئذ أربعون رجلاً وبعد أن قدَّم لهم الطّعام قام قائلاً: يا بني عبد المطلب إنّي أنا النّذير إليكم من الله عزّ وجل والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا. ثمّ قال: من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليّي ووصيّي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟. فسكت القوم فأعادها ثلاثاً كلّ ذلك يسكت القوم ويقول علي: أنا. فقال في المرَّة الثالثة: أنت[٧] .

ثالثاً ــ الثّقة بالنّفس: فرغم أنّ الإمام كان حدث السن وكان يعيش في مجتمع يحتلّ فيه العمر والهيكل مكانة سامية، إلاّ أنّ الإمام اخترق هذا الحاجز وتمرَّد على هذه القيمة الجاهلية ــ قيمة السّن والهيكل ــ ومارس ثقته بنفسه. فمثلاً في واقعة الخندق لما برز عمرو بن عبد ودّ الفارس المشهور من بني عامر بن لؤي وتخوَّف الناس من مبارزته، نادى الرَّسول الأعظم: مَن منكم يبرز لعمرو؟ فقام علي وقال: أنا يا رسول الله، فقال له النبي: إنّه عمرو! قال: وأنا علي[٨] .

وفي مرحلة الكهولة:

---

[٣] المصدر السّابق.

[٤] المصدر السّابق.

[٥] [ذلكم الإمام علي]: هادي المدرسي(ص٤٥) دار الزهراء، بيروت (١٩٧٨م).

[٦] سورة الشّعراء: (الآية: ٢١٤).

[٧] [مجمع البيان في تفسير القرآن]: الطبرسي (ج١٩/ص١٨٨) منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

[٨] [علي من المهد إلى اللحد]: محمد كاظم القزويني(ص١٢٧) مؤسسة الوفاء، بيروت ــ الطبعة الحادية عشرة (١٩٨٢م).

وبعد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان من المفروض أن يتولّى الإمام علي (عليه السلام) قيادة الأمّة وإدارة شؤونها كإمام وخليفة نصَّ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مواقف وموارد عديدة كحادثة غدير خم المشهورة؛ إلاّ أنّ ما حدث هو صرف الخلافة عن الإمام علي ومبايعة غيره في سقيفة بني ساعدة بينما كان الإمام مشغولاً بتجهيز رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يعترف الإمام في البدء بما حدث وامتنع عن البيعة لكنه لّما رأى أنّ إصراره على المطالبة بحقّه في الخلافة يهدِّد بخطر انقسام الأمّة ويتيح الفرصة للقوى المعادية للإسلام، آثر مصلحة الرِّسالة وسكت عن حقِّه وبايع من تولّوا أُمور المسلمين، يقول (عليه السلام):

« أمّا بعدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ــ (صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ) ــ نَذيراً لِلْعَالَمينَ وَمُهَيْمناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا مَضَى(عَلَيه السَّلامُ) تَنَازَعَ الْمُسْلمُونَ الأَمْرَ منْ بَعْده، فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي، وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الأمْرَ منْ بَعْده ــ (صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ) ــ عَنْ أَهْلِ بَيْته، وَلا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي منْ بَعْده! فَمَا رَاعَنِي إلاَّ إنْثِيَالُ النَّاس عَلَى فُلان يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجعَةَ النَّاس قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسلام، يَدْعُونَ إِلَى مَحْق دين مُحَمَّد ــ (صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ) ــ فَخَشَيْتُ إنْ لَمْ أَنْصُرِ الإسلام وَأَهْلَهُ أنْ أَرَى فيه ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصيبَةُ بِه عَلَيَّ أَعْظَمَ منْ فَوْت وَلاَيَتكُمُ الَّتي إنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلائلَ»[٩] .

وقد حاول البعض دفع الإمام وتحريضه على التصدِّي للخلافة كحقٍ شرعيٍ له، ولكن بصيرة الإمام النّافذة وإخلاصه للمصلحة العامة جعلته أسمى من الاستجابة لذلك التحريض.

يروي ابن الأثير في[تاريخه]: أنّ أبا سفيان أقبل وهو يقول: إنّي لأرى لجاجة لا يطفئها إلاّ دم، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش؟.

ثمّ قال لعلي: أبسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنّها عليه خيلاً ورجلاً. فأبى علي وزجره وقال: والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة وإنّك والله طالما بغيت للإسلام شرّاً لا حاجة لنا في نصيحتك[١٠] .

وقد وقف الإمام إلى جانب الخلفاء الثّلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ناصحاً ومشيراً ومسدّداً حيث كانوا يرجعون إليه في عويصات المسائل ومهمّات المشاكل فيجدون لديه العلم الغزير

---

[٩] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٦٢).

[١٠] [الكامل في التاريخ]: ابن الأثير(ج٢/ص٣٢٦) دار صادر، بيروت (١٩٧٩م).

والرّأي الصّائب والحلّ النّاجع. حتى اشتهر عن الخليفة عمر بن الخطاب قوله: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن علي بن أبي طالب[11].

فهو لم ينكفئ على نفسه ولم يـعـتـزل السّاحة ولم ينتقم لحقّه بكفّ يد الدّعم والمساعدة عمّن تولّوا الخلافة.

المحطة الأخيرة:

وحينما غزت الشّيخوخة جسم الإمام:

أُتيحت له فرصة قيادة الأمة بعد أحداث وأحداث، وأعطى في فترة خلافته القصيرة النّموذج الأعلى للحاكم المثالي، حيث التزم بتطبيق أحكام الإسلام وتجسيد مبادئه العادلة مهما كلّفه ذلك من مصاعب ومشاكل، ولم يقبل بسلوك طريق الوصولية «الميكافيلية»، فقد رفض التّعامل مع المصلحيين أمثال طلحة والزبير ومعاوية، على حساب مصالح الأمة، كما مارس العدالة الاجتماعية في أروع صورها، فلم يؤثّر قريباً ولم يجامل صديقاً.

ماذا عن [نهج البلاغة]:

هذه لمحة خاطفة عن حياة الإمام، فماذا عن [نهج البلاغة]؟..

الإمام لم يكن مجرّد حـاكـم يصدر قرارات ويفرض على الشّعب تنفيذها، وإنما كان صاحب رسالة وحامل مبدأ، يهمّه أن يعي الشّعب رسالته وأن يفهم مبادئه، ولذلك كان يهتم بتوجيه الجماهير عن طريق الخطب والرَّسائل والوصايا والتّعاليم، وكان يغذّي الولاة والعاملين في جهاز حكمه بنصائحه وتوجيهاته التربوية ليقوموا بدورهم القيادي على خير وجه. ممّا وفّر للأمّة ثروة ضخمة من توجيهات الإمام علي وتعاليمه.

ورغم أنّ السّلطات التي تعاقبت على الحكم كانت تحارب تلك الثّروة وتحظر انتشارها، إلاّ أنّ كمية كبيرة تجاوزت تلك الظُّروف ووصلت إلى أجيال الأمّة بشكل مفرّق متناثر. وفي أواخر القرن الرابع من الهجرة فكّر الشّريف الرّضي (رحمه الله) في جمع هذه الثّروة وحفظ هذا التراث، ولكنه لاتجاهه الأدبي اهتمّ بجمع الكلمات التي يطغى عليها الطّابع البلاغي والأدبي، ولم يهتم كثيراً بما سواها مهما كانت قيمتها الفكرية والاجتماعية.

يقول في مقدمة [النّهج]:« وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متّسقة، ومحاسن كلم غـيـر مـنـتـظمة، لأنّي أورد النّكت واللمع، ولا أقصد التّتالي والنّسق ».

---

[11] [تاريخ دمشق]: الحافظ ابن عساكر « ترجمة الإمام علي بن أبي طالب » (ج٣/ص٥١)، الطبعة الثالثة(١٩٨٠م) تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي.

ومن تسمية الشّريف الرّضي للنّهج نستشفّ ميوله الأدبية واتجاهه البلاغي، فكلمات الإمام علي تفيض بالحيوية، وتنبض بالرِّسالية والنّضال والكفاح وكان يمكن أن تسمّى بـــ [نهج الحياة] أو بـــ [نهج النّضال] أو بـــ [نهج الجهاد]، ولكن ميول الشّريف فرضت عليه اسم [نهج البلاغة] رغم أنّ البلاغة ليست مقصودة ولا متعمّدة من خطب الإمام وكلماته، وإنما هي سليقة الإمام والهدف والقصد من كلمات الإمام هي المفاهيم الحيوية وقضايا الرّسالة والنّضال.

ولهذا السّبب أهمل الشّريف الرّضي مقاطع كثيرة من بعض الخطب والرّسائل فغالباً ما يقول في [النهج] « ومن خطبة له (عليه السلام) »، أو« ومن كتاب له (عليه السلام)» ومع ذلك لم يدّعِ الشّريف الرّضي بأنّه أحاط بكلّ كلمات الإمام البلاغية فقد صرَّح بأنّه ترك في نهاية كلّ باب أوراقاً فارغة لاستدراك ما يجده فيما بعد، وهذا نصّ كـــلامـــه: « مفرداً لكلّ صنف من ذلك باباً ومفضلاً فيه أوراقاً لتكون مقدّمة لاستدراك ما عساه يشذّ عني عاجلاً ويقع إليّ آجلاً».

والشّريف الرّضي ينحدر من سلالة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فهو محمّد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام).

وُلد سنة (٣٥٩هـــ) وتوفي سنة(٤٠٦هـــ) في بغداد.

وهو عالم فذّ غزير العلم واسع المعرفة، وكان نقيب الطّالبيين وزعيم الأشراف، وواليًا لإمارة الحج والمظالم.

ومؤلّفاته القيّمة تكشف عن مستواه الرّفيع ككتابه [حقائق التّأويل]، و[تلخيص البيان في مجازات القرآن]، و[مجازات الآثار النّبوية]، و[خصائص الأئمّة] وغيرها.

وقد جمع نصوص[نهج البلاغة] خلال ستّة عشر عاماً، بدءاً من سنة (٣٨٤هـــ) إلى سنة (٤٠٠هـــ) حيث أرّخ فراغه منه.

وفي الفترة الأخيرة قام أحد العلماء وهو العلاّمة المحقّق الشيخ محمد باقر المحمودي بجهد مشكور فجمع سائر كلام الإمام فأصدر عدّة مجلّدات باسم [نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة] طبعت في بيروت ثمانية أجزاء في سبعة مجلّدات تنوف عدد صفحاتها على ثلاثة آلاف صفحة استغرق العمل على جمعها وإعدادها خمسة عشر عاماً من قِبل مؤلّفها المعاصر (جزاه الله خيراً).

وقد احتلّ [نهج البلاغة] مكانة كبيرة من اهتمام علماء الأمّة ومفكّريها فلحدِّ الآن أُلّف أكثر من(١٥٠) شرحاً على [النهج]. كما قام كبار العلماء بتحقيقه ونشره كالإمام محمد عبده مفتي الدّيار المصرية المتوفى سنة (١٣٢٣هـــ)، والعلامة الشيخ عبد الحميد محيى الدّين، والسيد عبد

العزيز سيد الأهل، والدكتور الشيخ صبحي الصّالح، وأخيراً الأديب المسيحي جورج جرداق، والّذي طبع مختاراته من [نهج البلاغة] تحت عنوان[روائع نهج البلاغة] مقدّماً لها بدراسة أدبية واسعة.

أهميّة[نهج البلاغة]:

لأنّنا لا نسمع من[نهج البلاغة] إلاّ كلمات التّزهيد وخطب الوعظ والتّحذير من الموت والآخرة نسمعها في مجالس العزاء وفي فواتح الموتى، لذلك ينظر أكثر الشّباب إلى [نهج البلاغة] ككتاب تشاؤمي يصلح لفواتح الموتى ومواعظ القرّاء!

أمّا في الحقيقة فــ[نهج البلاغة] تراث عظيم وثروة ضخمة تبرز أهميته في النّقاط التّالية:

١ ــ إنّه مصدر هام للكشف عن مفاهيم الإسلام وآرائه في جميع حقول الحياة، فمن مبادئ الأخلاق إلى قوانين الحرب إلى تعاليم إدارية وسياسية إلى رؤى اجتماعية واقتصادية.

٢ ــ إنّه مرآة صادقة تعكس لنا الكثير من أحداث التّاريخ الإسلامي، فهو بمثابة مذكّرات رجل عاش الأحداث وشارك في صناعتها.

٣ ــ وهو بعد ذلك ثروة أدبية يفيض بالبلاغة والذّوق الرّفيع حتى قيل عنه أنّه:« دون كلام الــخــالــق، وفوق كـــــلام المخلوق ».

حملة مغرضة:

يلاحظ في الفترة الأخيرة أنّ هناك حملة مغرضة من التّشويه تستهدف[نهج البلاغة] ففي(عدد مايو ١٩٧٥م) طالعتنا مجلة[الكاتب] المصرية بمقال للأستاذ محمود محمد شاكر يتهجّم فيه على[نهج البلاغة] ويدّعي أنّه مزيّف على الإمام.

وبعدها بفترة بسيطة خرجت مجلة[الهلال] المصرية بمقال آخر في(عدد ديسمبر ١٩٧٥م) للدّكتور شفيع السيّد يتناول نفس الموضوع.

وأخيراً جاء في مجلة[العربي] الكويتية مقال للدكتور محمد الدسّوقي(عدد شباط ١٩٧٥م) يكرّر نفس الحديث.

ولا ندري ما هدف هذه الحملة التي جاءت في وقت بدأت فيه أمّتنا الإسلامية تشعر بالحاجة للرّجوع إلى تراثها الأصيل؟ هل يريدون حرمان الأمة من الاستفادة من ذلك التراث الثّري؟ أو يريدون إشغال الأمة بالجدل والــمــنــاقــشــة حول قضايا ثابتة ومسلّمة؟!

والذي يهمّنا الآن هو مناقشة بعض الاعتراضات على [نهج البلاغة]:

١ ــ أنّه من اختلاق الشّريف الرّضي وليس من كلام الإمام.

وهذا الاعتراض يتلاشى حينما نراجع كتب التّاريخ والأدب التي أُلّفت قبل ولادة الشّريف الرّضي فنراها تتضمّن الكثير من خطب[نهج البلاغة] ورسائله وكلماته، وعليها اعتمد الشّريف الرّضي في جمع النّهج.

فمثلاً وردت بعض خطب النّهج في كتاب[البيان والتّبيين] للجاحظ المتوفى سنة(٢٥٥هــ).

وفي كتاب[صفّين] لنصر بن مزاحم المتوفّى سنة (٢٠٢هجرية).

وفي كتاب[تاريخ الطّبري] المتوفى سنة(٣١٠ هجرية).

وفي كتاب[الأغاني] للأصفهاني المتوفى سنة(٣٥٦ هجرية).

علماً بأنّ الشّريف الرّضي توفي سنة(٤٠٦هــ) فكيف يصحّ أنّه اختلق شيئاً موجوداً في كتب من ماتوا قبل ميلاده؟ وأخيراً أصدر أحد العلماء موسوعة جيدة أثبت فيها أسانيد ومصادر كلّ خطبة ورسالة وكلمة من[نهج البلاغة]، وهو العلاّمة السيد عبد الزّهراء الحسيني الخطيب، والذي قام بتحقيق نسبة ما في[نهج البلاغة] إلى الإمام علي بالاعتماد على مصادر موثوقة من كتب التّاريخ والأدب أغلبها كان مؤلّفاً قبل[نهج البلاغة]، وبعضها تروي كلام الإمام بإسناد متّصلة لا تمرّ في طريقها على[نهج البلاغة]، ولا على جامعه الشّريف الرّضي.

وقد طُبع هذا العمل العلمي الهام في أربعة مجلّدات تحت عنوان[مصادر نهج البلاغة وأسانيده] تنوف عدد صفحاتها على(١٨٧٠صفحة).

٢ ــ إنّ فيه ذمّاً لبعض الصّحابة لا يمكن أن يصدر من الإمام، والجواب أنّ الإمام يعتنق رأي الإسلام الّذي يرى أنّ المبادئ هي المقياس وليس الأشخاص فأيّ شخص يلتزم بالمبادئ يقدَّس ويحترم ولو كان عبداً يعيش في القرن العشرين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأي شخص خالف المبادئ وانحرف عنها يجب أن يذمّ ويخطّئ ولو كان يعيش مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيت واحد، فــ **{ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ }**[١٢] كما ذم القرآن الكريم زوجتي نبي الله نوح ونبي الله لوط قال تعالى:**{ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِيْنَ كَفَرُواْ اِمْرَأَت نُوْحٍ وَاِمْرَأَتَ لُوط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَينِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ أُدْخُلاَ اَلنَّارَ مَعَ الدَّاخلين }**[١٣].

٣ ــ إنّ فيه أخباراً عن أشياء غيبية مع اعتقادنا أنّه لا يعلم الغيب إلاّ الله وتذوب هذه الشُّبهة حينما نقرأ في[نهج البلاغة] أنّ رجلاً من بني كلب سمع الإمام يتحدّث عن بعض المغيبات، فقال:

---

[١٢] سورة الحجرات: (الآية: ١٣).

[١٣] سورة التحريم: (الآية: ١٠).

لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب. فضحك (عليه السلام) وقال:« يَا أخَا كَلْب، لَيْسَ هُوَ بعِلْمِ غَيْب وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ.. عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنيهِ وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيه جَوَانحِي »[14].

وهل هناك مانع من أن يخبر الله نبيّه بالمغيبات؟ والقرآن يقول:{ **ذَلكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**}[15]، ثمّ هل هناك مانع من أن يخبر الرّسول خليفته ووصيّه ببعض تلك المغيبات؟.

[14] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٨).

[15] سورة يوسف: (الآية: ١٠٢).

العدالة الاجتماعية في نهج البلاغة

قال الإمام علي(عليه السلام) في عهده لمالك الأشتر:

« أَنْصف اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِن خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ!

وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعَمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ »[1].

العدالة الكونية:

بملاحظة علمية يلقيها الإنسان على مسيرة الكون ونظام الحياة، يكتشف أنّ مواد الكون وعناصر الحياة تعيش حالة دقيقة من التّوازن، حيث رسم الله تعالى لكلّ عنصر أو مادة حدوداً معيّنة لا تتعدّاها، فإذا ما افترض أن تعدّى جرم أو مادّة عن الحدود المرسومة، فإنّ ذلك يعني حدوث الدَّمار والخراب في مسيرة الحياة.

فمثلاً:

١ـــ حجم الأرض حُدّد بميزان دقيق بحيث لا يتعارض ومصلحة الأحياء، فلو فرض أنّ حجمها توسّع وازداد فسيكون ذلك على حساب الحياة على الأرض حيث تزداد قوّتها الجاذبة فيصعب التحرّك والنّشاط على سطحها. ولو فرضنا الأمر بالعكس بحيث ينكمش حجم الأرض ويقلّ فإنّ ذلك يعني خراب الحياة حيث تقلّ الجاذبية فيفلت الهواء من أجواء الأرض وتتبخّر المياه.

٢ـــ تبعد الأرض عن الشّمس مسافة محدودة تقدّر بـــ (٩٣ مليون ميل)، وتحديد هذه المسافة إنما هو بوحي من دقّة النّظام العادل الذي يلفّ الكون. وإلاّ فلو ابتعدت الأرض بمسافة أبعد كثيراً عن هذه المسافة، لفقدنا الحرارة والدفء اللازم للحياة، ولو انعكس الأمر فاقتربت أكثر إلى الشّمس التي تبلغ درجة الحرارة على سطحها (١٢ ألف درجة فهرنهايت) لاحترق الأحياء وانعدمت الحياة.

٣ـــ وتعلمون أنّ الكرة الأرضية يلفّها غلاف جوّي ذو كثافة معيّنة، فرضها قانون الحياة الدّقيق، فإذا تقلّصت هذه الكثافة إلى أقلّ من وضعها الحالي، فذلك يعني أن تكون الحياة تحت

---

[1] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٥٣).

رحمة النّيازك والشّهب التي تتساقط في الفضاء بمعدل(١٥٠ ألف) شهاب ونيزك في اليوم الواحد، وسرعة الواحد أقوى من طلقة البندقية بـــ(٩٠ مرة)، فما بعد ذلك إلاّ دمار الحياة وهلاك الأحياء، ولو افترضنا العكس حيث تتضخّم كثافة الغلاف الجوي فإنّ ذلك يعني خسارتنا للكثير من أشعّة الشّمس الضّرورية.

هذا التّوازن الدّقيق الذي يعيشه الكون حيث يعمل كلّ جرم وتتحرّك كلّ مادّة ضمن حدودها المعيّنة ومجالها المحدّد نستطيع أن نعتبرها حالة العدالة، بينما الحالات المقابلة المفترضة والتي تطغى فيها أحد مواد الكون أو عناصره وتخرج عن حدودها يمكننا أن نسمّيها حالة الظُّلم. وما دامت حالة العدالة هي المسيطرة على الكون فسيبقى الكون في خير وسلام، أمّا إذا سادت حالة الظُّلم في الكون فذلك يعني خراب الكون ودماره.

بهذا نكون قد تعرّفنا على حالة العدالة الكونية والظلم الكوني، والآن دعنا نتعرّف على حالة العدالة الاجتماعية والظُّلم الاجتماعي.

العدالة الاجتماعية:

تماماً كما أنّ كلّ جرم أو مادّة في الكون لها حدود معيّنة والتزامها بحدودها يعني العدالة وخروجها عن حدودها يعني الظُّلم، فكذلك الحال في المجتمع البشري حيث عيّن الله لكلّ فرد من أفراد المجتمع حدوداً وحقوقاً، فإذا ما سار كلّ إنسان وفق حدوده واستلم حقوقه فذلك يعني العدالة، أمّا إذا طغى الإنسان على حدوده، أو سلبت منه حقوقه فذلك يعني الظُّلم.

وبالضّبط كما أنّ العدالة الكونية تحافظ على خير الكون واستقراره، بينما الظُّلم الكوني يسبّب دمار الكون وخرابه، فكذلك العدالة الاجتماعية تحفظ المجتمع وتسعده والظُّلم الاجتماعي يمزّق المجتمع ويشقيه.

في هذا المجال يقول الإمام علي(عليه السلام) لزياد بن أبيه ـــ وقد استخلفه لعبد الله ابن العباس على فارس وأعمالها في كلام طويل كان بينهما نهاه فيه عن تقدم الخراج ـــ قال(عليـــــه السلام):

« إسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ وَاحْذَرِ الْعَسْفَ ـــ الاعتداء ـــ وَالْحَيْفَ ـــ الظلم ـــ، فَإِنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بِالْجَلاَءِ ـــ بهروب الناس وهجرهم ـــ وَالْحَيْفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ ـــ الثورة ـــ »[٢] .

وهنا يجب أن ننبّه إلى حقيقة مهمّة وهي أنّ خالق البشر هو خالق الكون، والمجتمع البشري ما هو إلاّ جزء من الكون الذي تحكمه العدالة. فهل يمكن أنّ الله تعالى يفرض العدالة على جميع ذرّات الكون ويسمح للمجتمع البشري أن يفترسه الظُّلم والطُّغيان؟.

---

[٢] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٤٧٦).

بما أنّ خالق الكون واحد فيجب أن يكون النّظام الذي يسود الكون هو الآخر واحداً، وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة حيث يقول:

{ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات طبَاقاً مَا تَرَى في خَلْق الرَّحْمَن منْ تَفَاوُت فَارْجع الْبَصَرَ هَلْ تَرَى منْ فُطُور ثُمَّ ارْجع الْبَصَرَ كَرَّتَيْن يَنْقَلبْ إلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسئاً وَهُوَ حَسيرٌ}[٣].

بيد أنّ الله تعالى أراد أن يشرّف الإنسان ويكرّمه ويفضّله على سائر المخلوقات، وذلك بأن يتيح له المجال لكي يُكمل نفسه بنفسه، فلم يفرض عليه العدالة جبراً وقسراً كما فرضها على الشّمس والأرض، وإنما أوضح له طريق العدالة، ورغّبه في سلوكه، وبيّن له طريق الظُّلم وحذّره من الانزلاق فيه، ثم تركه واختياره.

صور الظّلم في المجتمع:

ولكي يتجلّى لنا مفهوم العدالة وأبعادها الاجتماعية في[نهج البلاغة]، علينا أن نستعرض صور الظُّلم الاجتماعي وموقف الإمام علي منها، فالأشياء تُعرف بأضدادها:

١ـــ الحاجة والحرمان:

فإنّ الله الذي خلق الناس وتكفّل بمعيشة ورزق كلّ واحد منهم بل وكلّ كائنٍ حي.. يقول تعالى:**{ وَمَا منْ دَابَّة في الأَرْض إلاَّ عَلَى الله رزْقُها }**[٤] ، ويقول الإمام علي (عليه السلام):« عياله الخلق، ضمن أرزاقهم، وقدّر أقواتهم »[٥]

وهذا الرزق مودع في كنوز الكون وخيراته، فعلى كلّ إنسان أن يعمل لاستخراج حصّته من هذه الكنوز والخيرات. ولكن من لا تساعده ظروفه الجسمية أو الاجتماعية على العمل وأخذ حصّته من خيرات الكون مباشرة، هل يسقط حقّه ويعيش محروماً أو يموت جوعاً؟.

كلاّ.. وإنما فرض الله على القادرين على العمل والحائزين على ثروات الكون أن يعطوا ذلك الفقير العاجز ما يسدُّ حاجته ويدفع الحرمان عنه، يقول تعالى:**{ وَفي أَمْوَالهمْ حَقٌّ للسَّائل وَالْمَحْرُوم }**[٦] ، فإذا امتنع الأثرياء عن إعطاء الفقراء حاجتهم ومعيشتهم، فهذا ظلم واعتداء لا يرضى به الله ولا تقبله شريعة العدالة.

فاقرأ معي ما يقوله الإمام علي(عليه السلام) في هذا المجال:

---

[٣] سورة الملك: (الآية: ٣ـــ٤).

[٤] سورة هود: (الآية: ٦).

[٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٩١).

[٦] سورة الذّاريات: (الآية: ١٩).

« إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلاّ بما متّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك »[٧] .

ويقول في رسالة لعامله على مكّة قثم بن العباس:

« وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع الفاقة والخلاّت »[٨] .

وفي عهده لمالك الأشتر يقول(عليه السلام):

« اللهَ اللهَ في الطَّبَقَة السُّفْلَى منَ الَّذينَ لا حيلَةَ لَهُم، منَ الْمَسَاكين وَالْمُحْتَاجين وَأَهْلِ الْبُؤسَى وَالزَّمْنَى، فَإنَّ في هَذه الطَّبَقَة قَانعاً وَمُعتَراً، وَاحْفَظْ لله مَا استَحْفَظَكَ منْ حَقِّه فيهمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قسْماً منْ بَيْت مَالكَ، وَقسْماً منْ غَلاَّت صَوَافي الإسلام في كُلِّ بَلَد، فَإنَّ للأَقْصَى منْهُمْ مثْلَ الَّذي للأَدْنَى، وَكُلٌّ قَد أستُرْعيتَ حَقَّهُ »[٩] .

وماذا سيحدث لو طغى الناس الأثرياء وانحرفوا عن قانون العدالة وتركوا الفقراء يكابدون الحاجة والحرمان؟!

إنّ الذي سيحدث حينئذ هو النّتائج الخطيرة التّالية:

أ ـــ الطبقية: حيث تتكدّس الثّروات عند مجموعة من الناس، بينما يكتوي الآخرون بنار البؤس والحرمان. وبمرور الأيام يزداد الأثرياء ثروة وترفعاً، ويزداد الفقراء تعاسة وانـــعـــزالاً. يـــقـــول الإمـــــام عـــلـــي(عليه السلام): « إضْرِبْ بطَرْفكَ حَيْثُ شئْتَ منَ النَّاسِ فَهَلْ تُبْصرُ إلاَّ فَقيراً يُكَابدُ فَقْراً، أوْ غَنياً بَدَّلَ نعْمَةَ الله كُفْراً، أَوْ بَخيْلاً إتَّخَذَ الْبُخْلَ بحَقِّ الله وَفْراً »[١٠] .

وبصراحة، يندّد الإمام بالمجتمع الطّبقي، فيقول(عليه السلام) في رسالته لعثمان بن حنيف واليه على البصرة:

« أمّا بَعْدُ، يَا بْنَ حُنَيْف: فَقَدْ بَلَغَني أَنَّ رَجُلاً منْ فتْيَة أَهْلِ الْبَصْرَة دَعَاكَ إلَى مَأدُبَة فَأَسْرَعْتَ إلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إلَيْكَ الْجفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجيْبُ إلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ »[١١] .

---

[٧] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٣٢٨).

[٨] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٦٧).

[٩] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٥٣).

[١٠] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٩).

[١١] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٥).

ب ـــ الجريمة والانحراف: فإنّ الفقر والحاجة الملحّة تدفعان إلى الجريمة والفساد كالنَّهب والسّرقة والاحتيال.

يقول الإمام(عليه السلام):

« وَإِذَا بَخِلَ الغني بمعروفه باعَ الْفَقِير آخِرَتَهُ بِدُنْيَاه »[١٢] .

ج ـــ الاضطرابات الاجتماعية: فإلى كم سيصبر الفقراء على ألم الجوع ويتحمّلون الحاجة والحرمان؟.. بل لابدّ وأن يتورّم الحقد في قلوبهم فيتفجّروا في ثورة عارمة.

يقول(عليه السلام):« الْحَيْفُ يَدْعُو إِلَى السَّيْفِ »[١٣] .

٢ــ عدم تكافؤ الفرص:

وهذا هو المشهد الثّاني من مشاهد الظُّلم الاجتماعي، حيث يُتاح المجال الاجتماعي والامتيازات الاقتصادية لفئة دون أُخرى، على أساس علاقتهم بجهاز الحكم أو قرابتهم من شخص الحاكم.

وهذا يسبّب وصول غير المؤهّلين لمراكز السّيادة، فيتلاعبون حينئذٍ بكرامة النّاس وحقوقهم، بينما ينسحب أصحاب الكفاءة لعدم إتاحة المجال لهم لممارسة كفاءتهم، فيُحرم المجتمع من خبراتهم وخدماتهم.

وقد وقف الإمام علي من هذا الأمر موقفاً صارماً شديداً، فبمجرّد أن تولّى الإمام الخلافة سحب كلّ الامتيازات السيّاسية والاقتصادية التي مُنحت بغير حق لأقرباء وأصدقاء الخليفة السّابق. يقول (عليه السلام):

« وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ –المال– قَدْ تُزُوِّجَ به النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنّ في الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ »[١٤] .

وأصرّ الإمام علي (عليه السلام) على عزل الولاة السّابقين ومن بينهم معاوية بن أبي سفيان والي الشّام القوي، ورفض أن يمنح طلحة والزبير ما يطمحان إليه من منصب لعدم كفاءتهما.

وطبّق سياسة المساواة في العطاء بين النّاس مهما اختلفوا في الفضل والمكانة وحينما عوتب صار يشرح سياسته العادلة بقوله:

---

[١٢] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٣٧٢).

[١٣] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٤٧٦).

[١٤] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٥).

« أَتَأْمُرُوني أنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بالْجَوْر فيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْه! وَاللهِ لا أَطُورُ به مَا سَمَرَ سَميرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالَ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُم، فَكَيْفَ وَإِنَّما الْمَالُ مَالُ اللهِ! »[١٥] .

وحتى أخوه وشقيقه عقيل بن أبي طالب جاء يطلب زيادة في عطائه على سائر الناس فرفض الإمام، وحينما ألحَّ عقيل في طلبه صرَّح له الإمام بإصراره على العدالة بطريقة عملية، يتحدَّث عنها(عليه السلام) فيقول:

« وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ، حَتَّى اسْتَمَاحَني منْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُور، غُبْرَ الأَلْوان، منَ فَقْرهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بالْعِظْلم، وَعَاوَدَني مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْه سَمْعي، فَظَنَّ أَنِّي أَبيعُهُ ديني، وَأَتَّبعُ قيَادَهُ مُفَارقاً طَريقتي فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَديدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُها منْ جسْمه ليَعْتَبرَ بهَا فَضَجَّ ضَجيجَ ذي دَنَف منْ أَلَمهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْترِقَ منْ مَيْسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكلَتْكَ الثَّوَاكلُ يَا عَقيلُ! أَتَئنُّ منْ حَديدَة أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا للَعبه، وَتَجُرُّني إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِه! أَتَئنُّ منَ الأَذَى وَلا أَئِنُّ من لَظَىً »![١٦] .

٣ــ الحصانة أمام القانون:

وصورة ثالثة من صور الظُّلم الاجتماعي أن لا يطبّق القانون إلاّ على الضُّعفاء والفقراء، أمّا ذوو المناصب والثّروة والجاه، فهم في حصانة عن تطبيق القانون عليهم إذا ما انحرفوا.

وقد حارب الإمام هذا الظُّلم بعنف حينما قال: «الذّليلُ عنْدي عَزيزٌ حَتّى آخذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عنْدي ضَعيفٌ حَتّى آخذَ الْحَقَّ منْهُ »[١٧] .

وكان ضبّاط الجيش والعسكريون يتهدّدون النّاس بمكانتهم التي تحصنهم عن طائلة القانون، ولكن الإمام علي(عليه السلام) رفع هذه الحصانة عن أيّ فرد منهم انحرف عن طريق العدل، يقول (عليه السلام) في رسالة بعث بها إلى المناطق التي يمرّ عليها جيشه هذا نصُّها:

« مِنْ عَبد اللهِ عَلي أَميرِ الْمُؤمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِن جُباةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلادِ:

---

[١٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٦).

[١٦] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٢٤).

[١٧] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٣٧).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنّي قَدْ سَيَّرتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بكُم إنْ شَــاءَ اللهُ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُم بمَا يَجبُ للهِ عَلَيْهِم من كَفِّ الأَذَى وَصَرف الشَّذَى، وَأَنَا أَبْرَأُ إلَيْكُم وَإلَى ذمَّتكُم من مَعَرَّة الْجَيْش، إلاَّ من جُوعَة الْمُضْطَرِّ، لاَ يَجدُ عَنْهَا مَذْهَباً إلَى شبَعه.. فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ منْهُم شَيْئاً ظُلْماً عَنْ ظُلْمهم، وَكُفُّوا أَيْديَ سُفَهَائكُمْ عَنْ مَضَارَّتهم، وَالتَّعَرُّض لَهُم فيْمَا اسْتَثْنَيْنَاهُ منْهُم. وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُر الْجَيْش، فَارْفَعُوا إلَيَّ مَظَالمَكُمْ، وَمَا عَرَاكُم ممَّا يَغْلبُكُمْ منْ أَمْرهم وَمَا لاَ تُطيقُونَ دَفْعَهُ إلاَّ باللهِ وَبي، فَأَنَا أُغَيِّرُهُ بِــمَعُــونَة اللهِ إنْ شَاءَ اللهُ»[١٨]

هكذا يضع الإمام حدّاً أمام الانحراف والتجاوز على القانون ليحفظ للقانون هيبته ووقاره.

٤ـــ الاعتداء على حقوق الآخرين:

لكلّ فرد في المجتمع كرامته وحقوقه، والاعتداء على كرامة أيّ فرد وحريته وحقوقه يعتبر شكلاً من أشكال الظُّلم، الّذي لابدّ وأن يعاقب الله عليه صاحبه عقاباً يكون وقعه وألمه أشدّ من وقع الظُّلم على المظلوم. يقول الإمام علي (عليه السلام): « يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ»[١٩] .

ويكون الظُّلم أكثر بشاعة إذا كان ضحيته الضُّعفاء والفقراء الذين لا يستطيعون مقاومة الظُّلم والدِّفاع عن حقوقهم يقول الإمام:« ظُلْمُ الضَّعيف أَفْحَشُ الظُّلْمِ »[٢٠] .

ويقول أيضاً:« وَبُؤسَى لمَن خَصْمُه عنْدَ اللهِ الفُقَراءِ وَالْمَسَاكين »[٢١] .

وعلى السُّلطة والمجتمع أن يوقفوا الظّالم عند حدّه وأن ينتزعوا حقوق المظلومين من يديه يقول الامام (عليه السلام): « لأُنْصفَنَّ الْمَظْلُومَ من ظَالمه، وَلأَقُودَنَّ الظَّالمَ بخزَامَته، حتَّى أُوردَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإنْ كَانَ كَارِهاً »[٢٢] ، ويقول(عليه السلام):« لَنْ تُقَدّس أُمّة لا يُؤخَذ للضَّعيف فيهَا حَقُّهُ منَ الْقَوي »[٢٣] .

موقفنا من الظلم:

---

[١٨] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٦٠).

[١٩] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٢٤١).

[٢٠] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٣١).

[٢١] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٢٦).

[٢٢] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٣٦).

[٢٣] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٥٣).

بعد أن تعرّفنا على صور الظُّلم الاجتماعي أصبح بإمكاننا تشخيص حالات الظّلم المتوفّرة في مجتمعاتنا، ولكن ما هو الموقف الذي يجب أن نقفه تجاهها؟ هل يكفي أن نتفرّج عليها ونأخذ دور المشاهد السّلبي؟ أم أنّ علينا مسؤولية تجاه واقع الظُّلم الاجتماعي؟

إنّ الإمام يحدّد موقف المسلم الواعي من الظُّلم بالشّكل التّالي:

١ـــ التألّم من الظُّلم: فإذا مررت على مشهد من الظُّلم الاجتماعي أو سمعت بخبر عنه فيجب أن لا تتركه يمرّ على سمعك مرور الكرام، بل عليك أن تجعله يتفاعل مع ضميرك ويستثير وجدانك.

فهذا الإمام بعد أن يصف حالة من حالات الظُّلم المعاصرة له يحفز السّامعين للتألم والتأسّف بل والموت أسفاً وألماً، يقول(عليه السلام):

« وَلَقَدْ بَلَغَني أَنَّ الرَّجُلَ منْهُم ـــ قوم معاوية ـــ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَة الْمُسْلمَة، وَالأُخْرَى الْمُعَاهدَة، فَيَنْتَزِعُ حجْلَهَا، وَقُلُبَهَا، وَقَلائدَهَا وَرُعُثَهَا، مَا تَمْتَنعُ منْهُ إلاَّ بالإسْتَرْجَاعِ وَالإسْتْرْحَام.. فَلَوْ أَنَّ امْرَءاً مُسْلماً مَاتَ من بَعْد هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ به مَلُوماً، بَلْ كَانَ به عنْدي جَديراً »[٢٤] .

٢ـــ الوقوف إلى جانب المظلوم ضدّ الظّالم: ففي آخر وصية للإمام علي (عليه السلام) وجّهها لولديه الحسنين قال: « كونا للظّالم خصماً وللمظلوم عوناً»[٢٥] .

٣ـــ العمل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ومكافحة الظُّلم: وهي مسؤولية كلّ فردٍ واعٍ، يقول الإمام (عليه السّلام):« أخذ الله على العلماء ـــ الواعين ـــ ألاّ يقارُّوا على كظّة ـــ تخمة ـــ ظالم، ولا سغب ـــ جوع ـــ مظلوم »[٢٦] .

---

[٢٤] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٧).

[٢٥] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٧).

[٢٦] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٣).

الحق في نهج البلاغة

قال الإمام علي (عليه السلام):

« فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِن دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ، وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍ »[1].

الحقُّ يعني: الأمر الثّابت الصّحيح. ويقابله الباطل أي: الشّيء الخطأ، غير ثابت الوجود.

وبهذا فالحقُّ إطارٌ شامل يتّسع لكلّ قضايا الحياة الفكرية والعملية.. فهناك فكرة حق وفكرة باطل، وكلمة حق وكلمة باطل، وعمل حق وعمل باطل، وموقف حق وموقف باطل.

فالفكرة التي تتوافق مع الواقع الصّائب هي فكرة حق، والكلمة التي تحكي الواقع الصّحيح هي كلمة حق، والعمل الذي ينبثق من الواقع الموضوعي هو عمل حق، والموقف الذي يفرضه واقع الأمر هو موقف حق. ويعبّر الإمام عن شمولية الحقّ بقوله:

« حَقٌ وَبَاطِلٌ وَلِكُلٍ أَهْلٌ »[2].

وعلى الإنسان أن يتّبع الحقّ في كلّ شيء فكرياً وعملياً، فلا يسمح لنفسه باعتناق الفكرة الباطلة أو التفوّه بالكلمة الباطلة أو ممارسة العمل الباطل لأنّه حينئذٍ يخدع نفسه ويضلّها ويظلمها.. ولأنّه أخيراً سيصطدم بالأمر الواقع الثّابت. فالكفّار حينما خدعوا أنفسهم واعتقدوا بعدم وجود بعث وحساب وعقاب، لم تغيّر عقيدتهم الباطلة واقع الحق، بل وجدوا أنفسهم فجأة أمام الأمر الواقع، ولم يسعهم حينئذٍ إلاّ الخضوع والاعتراف ولكن بعد فوات الأوان.

يقول القرآن الكريم:

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }[3].

وحين اعتقد الشيوعيون أنّ الملكية الفردية وحبّ الذّات ليست غريزة أصيلة في الإنسان، وإنّما هي طبع مكتسب يمكن إلغاؤه ونسفه، اصطدموا بالواقع بعد نجاح ثورتهم الشيوعية، واضطروا إلى التّراجع عن تطبيق نظريتهم الدّاعية إلى إلغاء جميع آثار الملكية الفردية، مبرّرين تراجعهم بالحاجة إلى فترة تمهيدية يُطلق عليها المرحلة الاشتراكية. وأخيراً أعلنت الماركسية فشلها وانهار وجودها الدّولي وكيانها السّياسي الاجتماعي.

---

[1] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٦٦).

[2] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٦).

[3] سورة الأحقاف: (الآية: ٣٤).

والغربيون استمروا فترة طويلة وهم يعارضون تطبيق حكم الإعدام على القاتل ظانّين أنّ في السّجن المؤبّد عقوبة رادعة تكفي عن الإعدام القاسي، ولكنهم أخيراً استسلموا أمام الواقع وثبت لديهم أنّ:{ **فِي الْقَصَاصِ حَيَاة** }[٤] ، وأنّ القتل أنفى للقتل كما كانت تقول العرب، ومن جديد ارتفعت في الغرب نداءات الرُّجوع إلى حكم الواقع، ونُفّذ أول حكم بالإعدام على القاتل من فترة قريبة.

في هذا المجال يقول الإمام علي(عليه السلام) في[نهج البلاغة]:

« مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَه »[٥] .

« مَنْ أَبْدَى صَفْحَته للْحَقِّ هَلَك »[٦] .

« وَإِنَّهُ لا يُغْنِيكَ عَنِ الْحَقِّ شَيء أَبَداً »[٧] .

ما هو مقياس الحق؟

لعلّ أكثر النّاس يرغبون في إتباع الحقّ ويحبون الالتزام به، ولكنّ المشكلة تكمن في طريقة التعرّف على الحقّ وتشخيص مواقعه.

فالكثرة الغالبة من الناس تستعمل مقاييس خاطئة للتوصّل إلى الحقّ، فتوصلهم إلى الباطل بينما يعتقدون في أنفسهم أنّهم على الحقّ وأنّهم يجسّدون مواقفه، وهؤلاء يصفهم القرآن بأنّهم أفشل الناس وأخسرهم أعمالاً، يقول تعالى:

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً }[٨] .

وحينما يتحدّث الإمام علي (عليه السلام) عن مشكلة الخوارج يشخّصها بخطئهم في استعمال المقاييس الموصلة إلى الحقّ رغم محبّتهم لإتباع الحقّ، يقول (عليه السلام):

« لاَ تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مِنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَه »[٩] .

والآن ما هو مقياس الحقّ عند الإمام علي(عليه السلام)؟

هل المقياس كثرة الأصوات والأتباع كما يظنّ أكثر النّاس حيث يستدلّون باتجاه غالبية الناس وميلهم إلى أمر ما على أحقّية ذلك الأمر.

---

[٤] سورة البقرة: (الآية: ١٧٩).

[٥] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٤٠٨).

[٦] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٦).

[٧] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٥٩).

[٨] سورة الكهف: (الآية: ١٠٣ــ١٠٤).

[٩] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٦١).

إنّ القرآن الكريم يرفض هذا المقياس ويقول:{ **وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون** }[10] ، { **وَمَا أَكْثرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرِصْتَ بِمُؤْمِنِين** }[11] ، { **وَأَنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** }[12] .

ويقول الإمام علي (عليه السلام):« لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله »[13] .

وفي كلماته التي ودّع بها أبا ذر الغفاري، حينما نفاه الخليفة عثمان بن عفان إلى الربذة ـــ منطقة نائية عن المدينة ـــ يقول(عليه السلام):

« لا يؤنسنَّك إلاّ الحقّ ولا يوحشنّك إلاّ الباطل »[14] .

وهل المقياس هو رأي شخصيات المجتمع وكبار القوم؟

فإذا أردنا أن نعرف موقف الحقّ في قضية ما فعلينا أن نرجع إلى كبار الجماعة وشخصيات الأمّة، ورأيهم حينئذ هو الحقّ الأكيد!.

إنّ هذا المقياس هو الآخر خاطئ لاحتمال جهل هؤلاء الشّخصيات بموقف الحقّ أو انحرافهم عنه، فيقودنا أتباعهم إلى جحيم الضّلال والعذاب، ويجسّد القرآن لنا هذه الحقيقة بقوله تعالى:{ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ. وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبراءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ** }[15] .

وقد عانى الإمام علي (عليه السلام) نفسه من هذه المشكلة في صراعه مع طلحة والزبير وأمّ المؤمنين عائشة، الذين كانوا من كبار الأمّة وشخصياتها، ولكن موقفهم لم يكن مطابقاً للحقّ، ورغم ذلك فقد انخدع بهم كثير من الناس وشكّك آخرون، لأنّهم لم يملكوا المقياس الواقعي للحقّ، بل اعتبروا هؤلاء مقياساً لمعرفة الحقّ.

في[نهج البلاغة] أنّ الحارث بن حوط جاء إلى الإمام (عليه السلام) قائلاً: أتراني أظنّ أصحاب الجمل كانوا على ضلالة ؟

فقال الإمام (عليه السلام):« يا حارث، إنّك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت. إنّك لم تعرف الحقّ فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه »[16] .

---

(10) سورة المؤمنون: (الآية: ٧٠).

(11) سورة يوسف: (الآية: ١٠٣).

(12) سورة الأنعام: (الآية: ١١٦).

(13) [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٤١).

(14) [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٣٠).

(15) سورة الأحزاب: (الآية: ٦٦ـــ٦٧).

(16) [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٢٦٢).

فهل المقياس إذاً.. سيرة الآباء والأجداد؟ حيث يقلّد الشّاب آباءه ويسير على طريقتهم، كما هو حال أكثرية النّاس، فإذا ولد من أبوين مسلمين أصبح مسلماً وراثياً، وإذا ولد من أبوين سنّيين صار سنياً طبيعياً، وإذا وجد أبويه على طريقة ما فلا محيص له عنها!! دون أن يستخدم عقله ويبحث عن الدّليل والبرهان.

إنّ هذا المقياس هو مقياس تافه يعطّل لدى الإنسان تفكيره وحرّيته، ولقد ندّد القرآن بهذا النّوع من التّقليد الأعمى، وسخر من أتباعه الّذين يقولون:{ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَنَحْنُ عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُون** }[17] .

وهذا الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في[نهج البلاغة] يذكّرنا بأنّ الطّليعة المؤمنة في صدر الإسلام ليس فقط خالفت آراء آباءها وإنما كافحت وناضلت ضدّها يقول:« ولقد كُنّا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليما »[18] .

وإذا لم يكن مقياس الحقّ هو رأي الأكثرية، ولا موقف الشّخصيات ولا سيرة الآباء والأجداد ، فما هو المقياس إذاً؟.

مقياس الحق:

إنّ مقياس الحقّ شيئان:

الأول ــ العقل: والّذي إنما منحه الله للإنسان حتى يفكّر به ويهتدي بضوئه إلى طريق الحق، ولذلك يحثّ القرآن الكريم النّاس على استعمال عقولهم والتّفكير بها للوصول إلى الحق. فيقول للمشكّكين في صدق رسالة النّبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم):

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُواْ لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد }[19] ، وفي آية أخرى يخاطب المشكّكين في عظمة الله تعالى:{ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنْفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى** }[20] .

ويقول الإمام علي (عليه السلام):« لاَ غِنَى كَالْعَقْلِ »[21] .

---

[17] سورة الزخرف: (الآية: ٢٣).

[18] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٥٦).

[19] سورة سبأ: (الآية: ٤٦).

[20] سورة الروم: (الآية: ٨).

[21] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٥٤).

ويقول(عليه السلام):« ولا يغشُّ الْعَقْل مَن إستَنصَحه»[٢٢] .
ويقول(عليه السّلام):« الْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِع »[٢٣] .
ويقول(عليه السّلام):« الْفِكْرُ مِرآةٌ صَافِيَة »[٢٤] .
ويقول(عليه السلام) في صفة خلق آدم (عليه السلام): « ثُمَّ نَفَخَ فيه منْ رُوحه فَمَثُلَتْ إنساناً، ذَا أَذْهَان يُجيلُهَا، وَفكَرٍ يَتصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ »[٢٥] .

الثّاني ـــ الوحي: وهل يوحي الله لعباده غير الحقّ أو يأمرهم بالباطل؟
إنّه لا ينبغي للإنسان أن يشكّ في أنّ أمر الدين ورأيه هو الحق الصّحيح الذي لا جدال فيه، يقول تعالى{ **الْحَقُّ من رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ منَ الْمُمْتَرِين** }[٢٦] ، وَفي آيةٍ أُخرى:{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بَالْحَقِّ من رَبِّكُمْ** }[٢٧] .
وفي[نهج البلاغة] يكثر الإمام ويكرّر وصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالهداية إلى الحقّ، وبأنّ الهدف من بعثته هو تبيين الحقّ للناس. يقول (عليه السلام):« إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الإنْقِطَاعَ وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الإطِّلاَع»[٢٨] .
« أَرسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّى أَميناً، وَمَضَى رَشِيداً، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقّ»[٢٩] .

البحث عن الحق واتباعه:
فيجب على الإنسان أن يفتّش عن الحقّ ويبحث عنه إزاء أيّ قضية أو أمر مستخدماً المقياس الصّحيح للتعرّف على الحقّ ولو كلّفه ذلك جهوداً وعناءً، يقول الإمام (عليه السلام):« وَخُض الْغَمَرات لِلْحَقِّ حَيْثُ كَان »[٣٠] .

[٢٢] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٢٨١).
[٢٣] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٤٢٤).
[٢٤] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٥).
[٢٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١).
[٢٦] سورة البقرة: (الآية: ١٤٧).
[٢٧] سورة النساء: (الآية: ١٧٠).
[٢٨] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٩٨).
[٢٩] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٠٠).

ففي بعض الأحيان يغلّف الباطل بغلاف الحقّ، ويلبس مسوحه، وهو ما نعاني منه في وقتنا الحاضر حيث ترتفع شعارات الحق بمختلف العناوين والمظاهر كشعار الوحدة والحرية والعدالة والتقدّم، ولاشكّ أنّ مضمون هذه الشّعارات بذاتها هدف حق، ولكن من يرفعها إنّما يستغلّها من أجل الباطل. فعلى الإنسان أن يكون ذكياً واعياً لا تخدعه الشّعارات ولا تغرّه المظاهر.

ويلفتنا الإمام (عليه السلام) إلى هذه الحقيقة الهامة« استغلال الشّعارات » حينما سمع شعار الخوارج:« لاَ حُكْمَ إلاَّ للهِ ». وهل يوجد مسلم يعترض على هذا الشّعار أو يُناقش فيه؟ لذا قال الإمام (عليه السلام):« كَلِمَةُ حَقٍ يُرادُ بِهَا بَاطِل »[٣١] .

والأخطر من ذلك أن يمزج الحقّ بشيء من الباطل أو تطعّم قضية باطلة بشيء من الحقّ، فهنالك يسهل الانخداع ويمكن التّضليل إلاّ للواعي الذي يستطيع أن يشرِّح القضية ويكتشف مكمن الباطل فيها.

فمثلاً: رياضة الجسم وتقوية عضلاته أمر حق، ولكن صرف هذا المقدار الطّائل من الأوقات والجهود والاهتمام بالرّياضة، وبالشّكل المعروف حالياً أمر باطل، ولكنّهما أمران ممتزجان ولذلك أمكن استقطاب الناس وانخداعهم.

وقد نبّه الإمام (عليه السلام) إلى هذه الظّاهرة الخطيرة بقوله:

« فَلَوْ أنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِن يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو:{ **الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى** }[٣٢]»[٣٣] .

ويقول أيضاً(عليه السّلام):« وَإِنَّمَا سُمِّيتْ الشُّبْهَة شُبْهَةً لأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقّ »[٣٤] .

فإذا عرف الإنسان الحقّ، وجب عليه إتباعه والتزام موقفه، وإن كان ذلك يتعارض مع مصالحه وأهوائه. وهنا تكمن مشكلة الحقّ في أنّه يتعارض غالباً مع أنانية الإنسان وأهوائه، ممّا يجعل الإنسان يفارق موقف الحق ويتبع الباطل إشباعاً لشهواته وغرائزه.

ويقول(عليه السلام):« فَأَمَّا إِتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصِدُّ عَنِ الْحَقِّ»[٣٥] .

---

[٣٠] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٣١).

[٣١] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٤٠).

[٣٢] سورة الأنبياء: (الآية: ١٠١).

[٣٣] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٥٠).

[٣٤] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٣٨).

ويقول الإمام علي(عليه السلام):« إنَّ الْحَقَّ ثَقيلٌ مَريء، وَإنَّ الْبَاطلَ خَفيفٌ وَبيء »[٣٦] .

ويقول أيضاً(عليه السّلام):« إنَّ أَفْضَلَ النَّاس عَنْدَ الله مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بالْحَقِّ أَحَبَّ إلَيْه -وَإنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ-منَ الْبَاطلِ، وَإنْ جَرَّ إلَيْه فَائدَةً وَزَادَهُ »[٣٧] .

مسؤوليتنا تجاه الحق:

نستخلص ممّا سبق أنّ مسؤوليتنا تجاه الحقّ تتلخّص في النّقاط التّالية:

١ ـــ البحث عن الحق:« وخُض الغمرات للحقِّ حيث كان »[٣٨] .

٢ ـــ اتباع الحق:« إنّ أفضل النّاس عند الله من كان العمل بالحقّ أحبّ إليه.. »[٣٩] .

ويقول(عليه السلام) في صفات المتقي أنه:« يَصفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ به »[٤٠] .

٣ ـــ الوقوف إلى جانب الحقّ وفي جبهته: فلا يصحّ للإنسان أن يقف موقف المتفرّج من صراع الحقّ والباطل، بل يجب عليه أن يدخل المعركة إلى جانب الحقّ، وإلاّ تحمّل مسؤولية خذلان الحق وانهزامه. يقول (عليه السلام) في الذين اعتزلوا القتال معه ضدّ الباطل:« خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطلَ »[٤١] .

وإذا انتصر الباطل فهل سيسلم المتفرّجون منه؟ وهل سيتركهم الباطل يمارسون الحقّ بحريتهم؟ كلاّ يقول الإمام (عليه السلام):« لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْر الْحَقِّ، وَلَمْ تَهنُوا عَنْ تَوْهينِ الْبَاطلِ لَمْ يَطْمَعْ فيكُمْ مَنْ لَيْسَ مثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَويَ عَلَيْكُمْ »[٤٢] .

ويقول(عليه السلام):« رَحمَ اللهُ رَجُلاً رَأَى حَقاً فَأَعَانَ عَلَيْه، أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بالْحَقِّ عَلَى صَاحبه»[٤٣] .

---

[٣٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٤٢).

[٣٦] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٣٧٦).

[٣٧] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٥).

[٣٨] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ١٠١).

[٣٩] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٥).

[٤٠] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٨٧).

[٤١] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ١٨).

[٤٢] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٦٦).

[٤٣] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٠٥).

٤ ـــ العمل من أجل الحق: حيث يكرّس الإنسان حياته من أجل إحقاق الحقّ ومقاومة الباطل، يقول الإمام (عليه السلام):« فَلاَ يَكُن أَفْضَل مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِن دُنْيَاكَ بُلُوغ لَذَّةٍ أوْ شِفاء غَيْظ، وَلَكن إِطْفَاء بَاطِل أوَ إِحْيَاء حق»[٤٤].

وما الشّهادة والمنصب والامتيازات إلاّ وسائل تُعين الفرد على تحقيق أهداف الحق. أمّا إذا تحوّلت هذه الوسائل إلى أهداف بحدّ ذاتها فقد خسر الإنسان حياته.

قال عبد الله بن عباس (رضي الله عنه): دخلت على أمير المؤمنين(عليه السلام) بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النّعل؟! فقلت: لا قيمة لها!!

فقال(عليه السلام):« وَالله لَهِي أَحَبّ إِلَيَّ مِن إِمْرَتِكُم إِلاَّ أَنْ أُقِيمَ حَقاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلاً »[٤٥].

---

[٤٤] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٦٦).

[٤٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٣٣).

الحرية في نهج البلاغة

قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في[نهج البلاغة]:
« لاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً »[١].

عبودية الكون:

حينما نُطلق عنان تفكيرنا في رحاب هذا الكون، ونتأمّل جوانبه ومخلوقاته نجد أنّ كلّ شيء في هذا الكون من أصغر ذرّة إلى أعظم مجرّة، يخضع لحركة قسرية مفروضة عليه.

فالله الّذي خلق الكون والحياة حدّد لكلّ ذرّة وكلّ حركة دوراً معيّناً ووظيفة خاصّة لا تستطيع التخلّف عن أدائها. فالسّماء والأرض لهما نظام معين لا اختيار لهما في الالتزام به، يقول تعالى:{ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ إِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** }[٢] .

والشّمس والقمر يحكمها قانون صارم لا يمكن لأحدهما أن يتمرّد عليه، يقول القرآن الحكيم:{ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** }[٣] .

ويقول الإمام في[نهجه]:« أَلاَ وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تُقلُّكُمْ ـــ تحملكم ـــ وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلاَ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلاَ لِخَيْرٍ تَرْجُوانِه مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا »[٤] .

وحتّى الحيوانات تخضع لدوافع غريزية توجّهها وجهة معيّنة فرضها الله تعالى عليها، ولذلك لا تستطيع تغيير حياتها ولا تطوير سلوكها، فالنّحلة مثلاً منذ عرفها الإنسان وإلى اليوم تعيش حياة معيّنة وتمارس دوراً محدوداً لم يطرأ ولن يطرأ عليه أيّ تغيير وتطوير إلى يوم القيامة، وكذلك دودة القزّ وسائر الحشرات والحيوانات تسيرها حركة قسرية تنسجم مع نظام الكون كلّه.

حريّة الإنسان:

---

[١] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٣١).

[٢] سورة فصلت: (الآية: ١١).

[٣] سورة يس: (الآية: ٣٨ـــ٤٠).

[٤] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٤٣).

أمّا الإنسان فيختلف عن سائر أجزاء الكون في أنّ له بُعدين: بُعد الجسم المادي وبُعد الرُّوح الإرادي، وهو في البُعد المادّي يستوي مع بقيّة المخلوقات في أنّه يخضع لنظام قسري وحركة جبرية لا اختيار له ولا إرادة فيها، فهو لا يختار والديه، ولا يختار وقت ولادته، ولا نوعه ولا شكل جسمه.. بل لا تدخل له في النّظام الفسيولوجي لجسمه، ولذا لم يستطع الإنسان تغيير أو تطوير النّشاط الدّاخلي لجسمه كنشاط الدّورة الدّموية أو عمل الخلايا أو شغل الكلية والكبد، لأنّ ذلك كلّه خارج إرادة الإنسان واختياره.

ولكن الإنسان يتميّز عن سائر المخلوقات ببُعده الثّاني: فهو ليس كتلة من المادة فقط كبقية المخلوقات بل بالإضافة إلى ذلك يحتوي على ومضة من روح الله تجعله الأفضل والأسمى. يقول تعالى عن تركيب الإنسان المادّي والرُّوحي وعن تكريمه بذلك:{ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَة إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً من طِين. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدينَ** }[٥] .

ويقول الإمام في[نهجه]:« ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بِالْبَلَّة حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَعَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاء وَوُصُول، وَأَعْضَاءٍ وَفُصُول:... ثُمَّ نَفَخَ فيهَا مِنْ رُوحه فَمَثُلَتْ إِنساناً ذَا أَذْهَان يُجيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوات يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَة يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»[٦] .

فبهذه الومضة الرُّوحية يتميّز الإنسان على باقي الكائنات، ولهذه الرُّوح خصائصها من التّفكير والإرادة. وإذا كان الإنسان في أعماله وتصرُّفاته يخضع لحركة قسرية فما هو دور تفكيره وما قيمة إرادته إذاً؟.

التّفكير إنما يكون في الاختيارات المتعدّدة، والإرادة إنما تكون بامتلاك الحرية والقدرة على ممارسة أيّ اختيار.

وهذا ما أعطاه الله للإنسان حيث منحه القدرة على التّفكير والحرية في التصرّف، ولذا حينما يتحدّث القرآن عن عبودية جميع الكائنات وخضوعها لأمر الله يستثني قطاعاً كبيراً من البشر الّذين لم يريدوا عبادة الله و لم يخضعوا في تصرّفاتهم لأمره. يقول تعالى:{ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ والْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وكَثيرٌ حَقَّ عَلَيهِ الْعَذَابُ** }[٧] .

---

[٥] سورة ص: (الآية: ٧١ـــ٧٢).

[٦] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١).

[٧] سورة الحج: (الآية: ١٨).

وحتّى في مجال الإيمان بالله والاعتراف بوجوده لم يستعمل الله أسلوب القسر والجبر مع الإنسان مع قدرته على ذلك لماذا؟ حتى يمارس الإنسان حرّيته الكاملة في هذه الحياة. يقول تعالى:{ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا** }[8] ، ويقول عزّ وجل:{ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرضِ كُلُّهُم جَمِيعاً** }[9]

ويقول جلّ وعلا:{ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** }[10] .

القضاء والقدر:

أساء بعض النّاس فهم مصطلحات الإسلام، وأخطئوا في تأويل آيات القرآن الكريم وأحاديث الرّسول (صلى الله عليه وآله وسلّم) كاصطلاح القضاء والقدر وآيات الضّلال والهدى، وتصوّروا أنّها تعني شيئاً من الجبر والتّحديد لحرية الإنسان واختياره.

ولا نريد في هذا الدّرس أن نخوض غمار هذا الموضوع ولكنّنا نُشير إلى أنّ آيات القرآن ومفاهيمه كلٌ مترابط لا تناقض فيه، ولا اختلاف، وحينما نفهم من بعض الآيات تناقضاً مع آيات أُخَر فعلينا أن نتّهم فهمنا وليس القرآن.

جاء رجل شامي يسأل الإمام علياً (عليه السلام) بالسُّؤال التّالي: أكان مسيرنا إلى الشّام بقضاءٍ وقدر؟.

وعرف الإمام أنّ الرّجل أساء فهم معنى القضاء والقدر وتصوّرهما نوعاً من الجبر والقسر والتّحديد لحرية الإنسان، فردَّ عليه فوراً بكلام طويل جاء فيه:« ويحك لعلّك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً حاتماً، ولو كان ذلك كذلك لبطل الثّواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلّف عسيراً... »[11] .

والقدر لغة هو:« حدُّ كلّ شيء ومقداره وقيمته وثمنه ».

والقضاء هو:« إحكام أمرٍ وإتقانه وانفاذه لجهته » كما يقول اللغوي المعروف أحمد بن فارس في كتابه[المقاييس][12] .

---

[8] سورة الأنعام: (الآية: ١٠٧).

[9] سورة يونس: (الآية: ٩٩).

[10] سورة الإنسان: (الآية: ٣).

[11] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٧٨).

[12] [الإلهيات]: الشيخ جعفر السبحاني (ج١/ص٥٢٤)، الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ) المركز العالمي للدّراسات الإسلامية– قم.

ويروي الكليني عن الإمام علي بن موسى الرّضا (عليه السلام) في تعريف القدر والقضاء قوله:« القدر: هي الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء. والقضاء: هو الإبرام وإقامة العين »[١٣].

فالقدر هو الحدود والأنظمة والسُّنن والقوانين التي وضعها الله في الكون والحياة. يقول الإمام علي (عليه السلام):« قدّر ما خلق فأحكَم تقديره »[١٤].

والقضاء هو نفاذ تلك السُّنن والأنظمة وانطباقها بالفعل، يقول الإمام (عليه السلام):« بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبيرِ الْمُتْقنِ وَالْقَضَاء الْمُبرَم »[١٥].

لذلك يروي الأصبغ بن نُباتة أنّ أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) عدل من حائط مائل إلى حائط آخر سليم فقيل له: يا أمير المؤمنين أتفرُّ من قضاء الله؟ قال(عليه السلام):« أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله عزّ وجل »[١٦].

فلو وقف الإمام في ظلّ الجدار المائل إلى السُّقوط فسقط عليه وأُصيب لكان ذلك مصداقاً لقضاء الله بإنفاذ قانون.

أمّا ابتعاد الإمام إلى جدار سليم فهو مصداق لقدر الله بالاستفادة من قانون يؤمّن السّلامة والحماية.

الوراثة والتربية:

وجاء العلم الحديث فاعترف للوراثة بأثرها الكبير في توجيه حياة الإنسان ليس فسيولوجياً فقط وإنما سيكيولوجياً وسلوكياً. وأعطى للتربية دورها البعيد في صياغة نفس الإنسان وتحديد ممارسته.

وليست هذه حقيقة جديدة على الدين فهو يؤمن بدور الوراثة والتربية في توجيه الإنسان، ولكن في حدود لا تسمح لها بسلب حرية الإنسان واختياره، فالعامل الوراثي والتربوي لا يعدو

---

[١٣] [الأصول من الكافي]: الكليني الرازي (ج١/ص١٥٨)، الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ) دار الكتب الإسلامية ـــ طهران.

[١٤] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٩١).

[١٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٨٢).

[١٦] [الإلهيات]: الشيخ جعفر السبحاني (ج١/ص٥٠٣).

أن يكون عاملاً مساعداً يدفع الإنسان لسلوك اتجاه ما في حياته، ولكن القرار الأخير والنّهائي بيد الإنسان نفسه، فباستطاعته أن يسير على طريق أبويه وعلى منوال بيئته، وبإمكانه أن يتمرَّد على كلّ ذلك ويسلك طريقاً آخر.

فابن نبي الله نوح (عليه السلام) لم يرث إيمان آبائه ولم يتمسّك بمبادئهم، يقول القرآن الكريم:{ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُنْ مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِين** }[١٧].

وفي التاريخ الكثير من النّماذج والأمثلة التي تثبت حرية الإنسان في التمرّد على عادات أهله وتقاليد مجتمعه. فهذا مصعب بن عمير وقد تولَّد من أصلاب جاهلية مترفة، يتمرّد على جاهلية أهله وترفهم وينضمّ إلى صفوف الفقراء والعبيد من طلائع الإسلام، وفي حياتنا المعاصرة نشاهد الكثيرين ممّن وُلدوا في أحضان الرأسمالية وتلقّوا تربية برجوازية مستكبرة يثورون على واقعهم وينضمّون إلى صفوف المتمرّدين والثّائرين.

وفي مجال الصّفات النّفسية والسُّلوك والأخلاق، ليس هناك تطابق حتمي، وتوافق دائم، بين الأبناء وعوائلهم التي انحدروا منها، فكم من عائلة صالحة تبتلي بولد سيء فاسد، وكم من ولد صالح انحدر من عائلة شريرة.

لقد كان الجارود العبدي صحابياً جليلاً مستقيم السّيرة والسُّلوك حتى استشهد في سبيل الله، وكان له ولد يُقال له: المنذر بن الجارود، وضع الإمام علي (عليه السلام) فيه ثقته، وولاّه على بعض النّواحي، مؤمّلاً فيه الصلاح لمعرفته بجلالة قدر أبيه الجارود. لكنّ ما حصل هو العكس من ذلك حيث خان الأمانة فكتب إليه الإمام (عليه السلام) كتاباً يؤنّبه فيه على خيانته ويعزله عن منصبه.

جاء في ذلك الكتاب:

« أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لاَ تَدَعُ لِهَوَاكَ إنْقِيَاداً، وَلاَ تُبْقِي لآخِرَتِكَ عَتَاداً، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ »[١٨].

مظاهر الحريّة:

---

[١٧] سورة هود: (الآية: ٤٢ــ٤٣).

[١٨] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٧١).

وكما خلق الله الإنسان حرّاً أراد له أن يعيش حراً، وأن يمارس إرادته واختياره، ولم يسمح الله تعالى لأيّ أحد أن يسلب من الآخر إرادته أو أن يقف مانعاً له من ممارسة حرّيته، فالرِّسالات السّماوية تعترف للإنسان بحريته وتحمي حريته، والمجالات التي يمكن للإنسان أن يستعمل فيها حريته في الإسلام هي بسعة الحياة وأبرزها ما يلي:

١ـــ حرّية الرأي والفكر: فلا يصحّ أن تجبر إنساناً ما على اعتناق عقيدة معينة:{ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين** }[١٩] ، { **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤمنين** }[٢٠] ، { **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر** }[٢١] ، ويقول الإمام علي (عليه السلام):« إِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِه عَمي »[٢٢] ، وفي ظلّ الحكم الإسلامي عاش اليهود والنّصارى محتفظين بديانتهم وعقائدهم.

وما عدا الأُصول الأساسية للعقيدة الإسلامية، يتمتّع الإنسان المؤمن بحرّيته الكاملة في الإيمان بسائر المفاهيم الثّانوية، ما لم تصل إلى حدِّ المساس بالعقائد الأساسية.

فمثلاً: عالم الذرّ بتفصيله المعروف، للإنسان حريته في أن يؤمن به أو لا يؤمن فإذا ثبت لديه واقتنع بصحّته آمن وإلاّ فليس مسؤولاً عنه فلا يجبر على ذلك.

وأمّا القضايا الكونية والطّبيعية العلمية فلقد أوكلها الدّين إلى تفكير الإنسان ومستوى علمه، فلم يفرض عليه مثلاً: الاعتقاد بحركة الأرض ودوران الشّمس.. كما كانت الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى تفرض على المجتمع المسيحي آراءها المتعسّفة في هذا المجال وتكفّر وتقتل كلّ من يخالفها الرّأي في ذلك.

٢ـــ حرية القول والمعارضة: وللإنسان في ظلّ الإسلام الحقّ في أن يقول ما يشاء وأن يعارض ما يراه انحرافاً أو مخالفة.

وفي العصر الإسلامي الأوّل كان المسلمون يمارسون هذه الحرية غالباً بشكل رائع وجريء، فقد كان الرجل العادي يعترض على الخليفة ويناقشه، وكانت المرأة العادية تحتجّ على قرار الخليفة وتضطرّه إلى سحبه، كما حدث ذلك في عهد الخليفة عمر، ففي[السُّنن الكبرى] للبيهقي وردت الحادثة التّالية:

---

[١٩] سورة البقرة: (الآية: ٢٥٦).

[٢٠] سورة يونس: (الآية: ٩٩).

[٢١] سورة الكهف: (الآية: ٢٩).

[٢٢] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ١٩٣).

« خطب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) النّاس فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: ألا لا تغالوا في صداق النّساء فإنّه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أو سيق إليه، إلاّ جعلت فضل ذلك في بيت المال.

ثمّ نزل فعرضت له امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين أكتاب الله تعالى أحقُّ أن يُتّبع أو قولك؟

قال: بل كتاب الله تعالى. فما ذاك.؟

قالت: نهيت الناس آنفاً أن يُغالوا في صداق النّساء والله تعالى يقول في كتابه:{ **وَآتَيْتُم إِحْداهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا منهُ شَيْئاً** }[٢٣] .

فقال عمر(رضي الله عنه): كــلّ أحــد أفــقــه مــن عــمــر. مرتين أو ثلاثاً، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إنّي كنتُ نهيتكم أن تغالوا في صداق النّساء، ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له »[٢٤] .

ومرّة جاءت امرأة إلى الإمام علي (عليه السلام) تشكو أحد ولاته، فما كان من الإمام إلاّ أن رحّب بشكواها ودفع إليها كتاباً بعزل ذلك الوالي.

تقول سودة بنت عمارة الهمدانية في حديثها عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): والله لقد جئته في رجل كان قد ولاّه صدقاتنا، فجار علينا فصادفته قائماً يصلّي، فلما رآني إنفتل من صلاته، ثم أقبل عليّ برحمة ورفق وتعطّف، وقال: ألكِ حاجة؟ قلت: نعم. فأخبرته الخبر، فبكى ثم قال: اللهمَّ أنت الشّاهد عليّ وعليهم أنّي لم آمرهم بظلم خلقك، ثمّ أخرج قطعة جلد، فكتب فيها:

« بسم الله الرّحمن الرحيم{ **قَدْ جَاءَتْكُم بَيّنَة من رَبِّكُم فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالميزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم وَلا تُفْسِدُوا فِي الأرضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنْتُم مُؤمِنين** }[٢٥] .

فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتّى يقدم عليك من يقبضه منك، والسّلام.

ثمّ دفع الرُّقعة إليّ، فوالله ما ختمها بطين ولا خزمها، فجئت بالرّقعة إلى صاحبه فانصرف عنّا معزولاً »[٢٦] .

---

[٢٣] سورة النساء: (الآية: ٢٠).

[٢٤] [السنن الكبرى]: الحافظ البيهقي (ج٧/ص٢٣٣)، دار صادر ــــ بيروت.

[٢٥] سورة الأعراف: (الآية: ٥٨).

وروى المؤرّخون: أنّ الحريث بن راشد السّامي كان عدواً للإمام علي (عليه السلام) فجاءه قائلاً: والله لا أطعت أمرك، ولا صلّيت خلفك. فلم يغضب لذلك، و لم يبطش به، و لم يأمر له بالسّجن أو العقوبة، وإنّما دعاه إلى أن يناظره حتّى يظهر أيّهما على حق، ويبين له وجه الحقّ لعلّه يتوب. فقال له الحريث: أعود إليك غداً.

فقبل منه الإمام فانصرف الرجل إلى قومه و لم يعد »[٢٧] .

والنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة المعصومون (عليهم السّلام) كانوا يتيحون المجال للآخرين أن يعلنوا آراءهم وأن يتحدّثوا بحريتهم، وإن كانت آراؤهم تخالف آراء الأئمة وعندها يقوم الإمام بإقناع الطّرف المقابل بوجهة نظره.

فالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لّما رأى أحد العرب مرتبكاً في إبداء رأيه، قال له:« هَوِّن عَلَيـــْكَ فَلَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا إبنُ إِمْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُل القِدَّ »[٢٨] .

والإمام علي حينما بايعته جماهير الأمة، أبى بعض الصّحابة كعبد الله بن عمر أن يبايعوا الإمام، فاقترح البعض على الإمام أن يجبرهم على البيعة فرفض إجبارهم.

جاء في[تاريخ الطّبري]: وخرج علي إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وطاق وعمامة خز، ونعلاه في يده، متوكّئاً على قوس، فبايعه النّاس وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص.

فقال علي: بايع.

قال: لا أُبايع حتى يُبايع الناس، والله ما عليك مني بأس.

قال: خلُّوا سبيله.

وجاؤوا بإبن عمر –عبد الله– فقال: بايع.

قال: لا أُبايع حتى يبايع النّاس.

قال: إئتني بحميل –كفيل–.

قال: لا أرى حميلاً.

---

[٢٦] [علي من المهد إلى اللحد]: محمد كاظم القزويني (ص٢٦٩) الطبعة الحادية عشرة (١٩٨٢)، مؤسسة الوفاء ــــ بيروت

[٢٧] [السبيل إلى إنهاض المسلمين]: السيد محمد الشيرازي (ص٤٤٩).

[٢٨] [بحار الأنوار]: محمد باقر المجلسي (ج١٦/ص٢٢٩) الطبعة الثانية (١٩٨٣م)، مؤسسة الوفاء ــــ بيروت.

قال الأشتر: حل عني أضرب عنقه.

قال علي: دعوه أنا حميله »[29] .

والإمام الحسن بن علي لما صالح معاوية صارحه الكثير من أصحابه بمعارضتهم.

يقول السُّيوطي : إنّ بعض أصحابه كانوا يقولون له: يا عار المؤمنين!!

فيقول (عليه السلام): العار خير من النّار.

وقال له رجل: السّلام عليك يا مُذلّ المؤمنين.

فقال: لست بمذلّ المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك[30] .

٣ـــ حرية العمل والتصرّف: فالإسلام يمنح الإنسان حرّيته الكاملة في أن يعمل ما يريد ويتصرّف كما يشاء، فلا يمنعه من التملّك الفردي أو التّعامل التّجاري أو النّشاط الاجتماعي، بشرط أن لا يكون في تصرّفه تعدٍ على حقوق الآخرين وحرّيتهم أو إضرارٌ بالمصلحة العامة.

ولا يسمح الإسلام بمصادرة حرّيات النّاس وإجبارهم على عمل أو موقف لا يريدونه، يقول الإمام علي (عليه السّلام):« وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون »[31] .

لماذا الحدود والعقوبات:

وقد يتساءل بعضكم عن الحدود والعقوبات التي وضعها الإسلام على بعض الجرائم كالزّنا والخمر والسّرقة أليس فيها تحجيم لحرية الإنسان واعتداء على إرادته واختياره؟

الجواب:

أولاً: المحرّمات التي منع الله الإنسان منها إنما تعني مناطق الضّرر والشّقاء لحياة الإنسان وراحته، والله تعالى لا يسمح للإنسان بأن يُؤذي نفسه ويشقيها{ **وَلا تُلْقُوا بِأَيدِيكُم إِلى التَّهْلُكَةِ**}[32] .

ثانياً: إنّ أغلب هذه الجرائم تتعدّى آثارها حدود الإنسان نفسه إلى حدود الآخرين وحرّياهم، فالسّرقة اعتداء على الآخرين والزّنا واللواط وحتى الخمر يسبّب ذلك.. والإسلام لا يتيح للإنسان مجال الاعتداء على راحة الغير.

---

[29] [تاريخ الأمم والملوك]: محمد بن جرير الطبري (ج٣/ص٤٥١)، مؤسسة الأعلمي ـــ بيروت.

[30] [تاريخ الخلفاء]: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

[31] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٠٨).

[32] سورة البقرة: (الآية: ١٩٥).

ثالثاً: محاسبة الإنسان على ما ألزم به نفسه لا تشكّل اعتداءً على حرّيته، فمثلاً: أنت حرٌ في أن تزورني غداً أو لا تزورني ولكنّك إذا وعدتني بذلك وجلست أنتظرك و لم تأتِ حسب الموعد، فيحقّ لي حينئذ أن أحاسبك: لماذا تأخّرت ولماذا لم تأت؟ فهل من المعقول أن تجيبني بأنّك حر؟ صحيح أنّك حرٌ ولكنّك ألزمتَ نفسك بالوعد.

لذلك يقول الإمام علي (عليه السلام):« الْمَسْؤُولُ حُرٌ حَتَّى يَعِدَ »[٣٣] .

والعامل له حرّيته الكاملة أن يعمل في بيتك أو لا يعمل، ولكنّه إذا عقد معك اتفاقية أصبح ملزماً بذلك، وهو باختياره قد ألزم نفسه.

فكذلك الإنسان حينما يؤمن بالإسلام ويعتنقه يكون قد ألزم نفسه بإتباع نظمه وقوانينه، وكأنّه قد وقّع اتفاقية يقوم بمؤدّاها بالأعمال المفروضة، ويتجنّب الأعمال المحرّمة، وما دام قد اختار هو نفسه الإسلام و لم تفرضه عليه قوّة أخرى وبحرّيته وقّع الاتفاقية، فعليه مسؤولية الالتزام فإذا ما خالف وشرب الخمر أو زنا.. يكون مسؤولا ومحاسباً.

ولكن هل الإسلام يحاسب المسيحيين على شرب الخمر أوترك الصّوم؟ أو هل يحاسب المجوس على نكاح محارمهم؟ طبعاً في الدنيا لا يحاسبهم على ذلك لأنّهم لم يختاروا الإسلام، أمّا الآخرة فذلك موضوع آخر.

كيف يستعبد الإنسان:

بعد أن عرفنا أنّ الله تعالى خلق الإنسان حراً، وضمن له حريته في هذه الحياة بشرائعه ورسالاته، بقي علينا أن نعرف: من يسلب حرية الإنسان ويفرض عليه العبودية؟ وما هو موقف الدّين وخاصّة[نهج البلاغة] من هذه الجهات التي تُصادر حرية الإنسان؟

١ــ الغرائز والشّهوات: فغرائز الإنسان وشهواته الحيوانية قد تفرض عليه ما يخالف منطق عقله وضميره، فإذا لم يكن الإنسان شجاعاً فسيقع تحت تأثير هذه الغرائز ويخضع لها، متنازلاً عن حرّيته، فيصبح عبداً لشهواته لا يستطيع مخالفتها. يقول الإمام في[نهجه]:« وَكَذلكَ مَن عَظُمَت الدُّنيا فِي عَيْنه ــ يعني شهوات الدنيا ــ وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا فِي قَلْبِه، آثَرَهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى فَانقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا »[٣٤] .

---

[٣٣] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٣٣٦).

[٣٤] [نهج البلاغة] :(الخطبة رقم: ١٦٠).

ويقول (عليه السلام):« قَدْ خَرقَت الشَّهَوات عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتْ الدُّنيَا قَلْبه، وَوَلَهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُه، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيءٌ مِنْهَا، حَيْثُ مَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُ مَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ إِلَيْهَا»[٣٥] .

وقال(عليه السّلام):« لا يَسْتَرِقّنك الطّمَع، وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً »[٣٦] .

ويقول(عليه السلام):« مَنْ تَرَكَ الشَّهَوات كَانَ حُراً »[٣٧]

٢ـــ التّقليد الأعمى: حيث يرى الإنسان الآخرين يقومون بعمل ما أو يسيرون في اتجاه ما، فيبادر إلى إتباعهم وتقليدهم دون أن يفسح المجال لتفكيره واختياره، ودون أن يمارس حرّيته وإرادته. يقول الإمام في [نهجه]: « أَلاَ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِن طَاعَةِ سَادَاتِكُم وَكبرائِكُم »[٣٨] .

٣ـــ قوّة الآخرين وتسلّطهم: فيمنعون الإنسان من ممارسة حريته ويفرضون عليه آراءهم وقوانينهم، يقول (عليه السلام):« اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرّعوهم المُرار»[٣٩] .

ويُعالج الإسلام هذه المشكلة من جانبين: جانب المتسلّط المستعبد حيث يمنعه من سلب حريات الناس، وجانب المستعبَد الذّليل حيث يحفّزه على المطالبة بحرّيته، ويمنعه من الرُّضُوخ والاستسلام.

ففي الجانب الأول يقول الإمام علي (عليه السّلام):« شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَتَّقيهِ النَّاس مَخَافَةَ شَرِّه»[٤٠] .

ويقول الإمام في[نهجه] وفي عهده لمالك الأشتر:« وَأشْعِر قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعيَّة، وَالْمَحَبَّةَ لَهُم، وَالُّلطْفَ بهم، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِم سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِم أُكُلهم، فَإِنَّهُم صِنْفَان: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ »[٤١] .

---

[٣٥] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٠٩).

[٣٦] [غرر الحكم ودرر الكلام]: عبد الواحد الآمدي.

[٣٧] [غرر الحكم ودرر الكلام]: عبد الواحد الآمدي.

[٣٨] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٩٢).

[٣٩] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٩٢)..

[٤٠] [غرر الحكم ودرر الكلام]: عبد الواحد الآمدي (ج١/ ص٤٠٦).

[٤١] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٥٣).

ويقول (عليه السلام):« وَلاَ تُقسِرُوا أَوْلاَدَكُم عَلَى أَخْلاَقِكُم، فَإِنَّهُم خُلِقُوا لِزَمَانٍ غَيْرَ زَمَانِكُم»[٤٢] .

وفي الجانب الثّاني يحاسب الله الخانعين على استسلامهم لمن يُسلب حرّياتهم، يقول تعالى: **{إِنَّ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكَةُ ظَالمي أَنْفُسِهم قَالُوا فيمَ كُنْتم قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ في الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُن أَرْضُ اللهِ وَاسعَة فَتُهَاجرُوا فيهَا فَأُولئكَ مَأْوَاهُم جَهَنَّم وَسَاءَت مَصيرا}**[٤٣] .

ويقول الإمام في[نهجه] الخالد:« لاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُراً »[٤٤] .

ويقول(عليه السلام):« أَيُّهَا النَّاس إِنَّ آدَم لَمْ يَلِدْ عَبْداً وَلا أَمَةً وَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُم أَحْرَار »[٤٥] .

ومـــن شـــعارات ثورة الإمام الحسين(عليه السلام):« كُونُوا أَحْرَاراً في دُنْيَاكُم »[٤٦] .

ويقول الإمام جعفر الصّادق (عليه السلام):« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمن أُمُورَهُ كَلَّهَا وَلَمْ يُفَوِّض إِلَيْه أنْ يَكُونَ ذَلِيلاً أمَا تَسْمَع قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: **{وَلله الْعزَّة وَلرَسُوله وَللْمُؤمنين}**[٤٧] . فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، ثم قال:« إنّ المؤمن أعزّ من الجبل إنَّ الجبل يستقلّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقلّ من دينه شيء »[٤٨] .

---

[٤٢] [شرح نهج البلاغة]: إبن أبي الحديد (ج٢٠/ص٢٦٧).

[٤٣] سورة النساء: (الآية: ٩٧).

[٤٤] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٣١).

[٤٥] [نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة]: محمد باقر المحمودي (ج١/ص١٩٨) مؤسّسة الأعلمي ــ بيروت.

[٤٦] [اللهوف في قتلى الطفوف]: ابن طاووس (ص٥٢)، الطبعة الثانية (١٩٥٠م).

[٤٧] سورة المنافقون: (الآية: ٨).

[٤٨] [الكافي]: الكليني الرازي (ج٥/ص٦٣).

المسؤولية في نهج البلاغة

قال الإمام علي(عليه السلام) في[نهج البلاغة]:

« إِتَّقُوا اللّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ فَإِنَّكُم مَسْؤُولُون حَتَّى عَنِ الْبُقَاعِ وَالْبَهَائِم »[1].

واقع الأُمّة المأساوي:

تعيش أُمتنا الإسلامية في هذا العصر وضعاً مأساوياً مترديّاً جداً.

فالإسلام الذي هو مبعث نهضة الأمّة ومصدر حيويتها وكرامتها قد طرد من مسرح الحياة وسجن في زوايا الكتب وصدور العلماء، وحوصر في حدود التّقاليد والعادات والطُّقوس.

والاستعمار لا يزال يحتلّ أجزاء عزيزة من ربوع الوطن الإسلامي، فالمسجد الأقصى أُولى القبلتين ومسرى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت هيمنة شراذمة اليهود الغاصبين... والنعرات القومية والتكتّلات الحزبية والمصالح الأنانية لا تزال تمعن في تمزيق جسم الأمة وتقطع أشلاءها.

والبؤس والفقر هما سمة الشُّعوب الإسلامية مع ما تمتلك من ثروات طائلة وأراضي خصبة معطاءة.

والتخلّف الشّامل يلفّ كلّ جوانب حياة الأمّة ويسيطر على أجوائها..

والميوعة والفساد والانحراف أصبح المصير الذي ينتظر كلّ أبناء الأمّة وأجيالها المقبلة.

والاستبداد السّياسي والقمع والإرهاب وانتهاك حقوق الإنسان ومصادرة الحرّيات هي عناوين واقع حياة أغلب الشُّعوب الإسلامية.

إزاء هذا الواقع المؤلم الّذي نعيشه لو تصفحّنا مواقف النّاس من أبناء الأمّة لوجدناها تتمثّل في المواقف التّالية:

أولاً ــــ موقف اللامبالاة:

وهو الموقف الذي يضمّ غالبية أفراد الأمّة حيث لا يتعدّى تفكير كلّ فرد حدود نفسه ومصالحه الذّاتية، ففي أثناء شبابه يجتهد في إكمال دراسته وينتظر البعثة لمواصلة الدّراسات العليا في الخارج، ثمّ يعود ليبحث عن وظيفة مغرية وشقّة فارهة وسيّارة من آخر موديل وزوجة جميلة... أو يتّجه إلى التّجارة والأعمال الحرّة فيفتتح الدكّان بعد الآخر، ويشيد العمارة إلى جنب

[1] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٦٧).

الأُخرى، ويتكيّف حسب الواقع المعاش، يتلذّذ بالطّعام الشّهي، والشّراب المنعش، والأجواء المريحة.. ولا يهمّه بعد ذلك آلام أُمّته ومآسي وطنه وأوضاع مجتمعه...

إنّك لا تجد في حياة هذا القطاع الواسع من الأمّة فرقاً كبيراً عن حياة الحيوانات التي لا تفكّر في أكثر من أكلها وشربها ولا يهمّها بعد ذلك في أيّ جوٍ تعيش.. أترى لو أنّك ربطت بقرة في مزرعة أو بستان هل تهتمّ هذه البقرة في معرفة مساحة البستان أو حدوده أو صادراته أو مصروفاته؟؟!! كلاّ إنّها تهتمّ فقط بوجبات العلف التي تقدّم إليها!! تماماً كما يهتمّ الإنسان اللامبالي بأكله وشربه وملذّاته.. فهل تلاحظ بينهما كبير فرق؟؟

وقد تحدّث الإمام علي (عليه السلام) في[نهج البلاغة] مشيراً إلى حيوانية هذا الموقف معلناً رفضه لموقف اللامبالاة، يقول (عليه السّلام):« وَلَوْ شئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَاب هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائجِ هَذَا القزِّ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلبَني هَوَايَ، وَيَقُودَني جَشَعي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَة، وَلَعَلَّ بالْحجَاز أَوْ الْيَمَامَة مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ في الْقُرْص، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بالشِّبَعِ، أَوْ أَبيتَ مبْطَاناً وَحَوْلي بُطُونٌ غَرْثَى ــ جائعة ــ وَأَكْبَادٌ حَرَّى... فَمَا خُلقْتُ لِيَشْغَلَني أَكْلُ الطَّيِّبَات كَالْبَهيمَة الْمَرْبُوطَة هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَة شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا... »[٢].

ويقول أيضا (عليه السّلام): « أَتَمْتَلئُ السَّائمَةُ ــ الحيوان الذي يرعى في العشب ــ من رِعْيهَا فَتَبْرُكَ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ ــ الحيوان المربوط الذي يعلف ــ منْ عُشْبهَا فَتَرْبض؟ وَيَأْكُلُ عَليٌ منْ زَاده فَيَهْجَعَ ــ يسكن ويرتاح ــ؟! قَرَّتْ إذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاولَة بالْبَهيمَة الْهَاملَة، وَالسَّائمَة الْمَرْعيَّة؟! »[٣].

ويقول (عليه السلام):« أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّة، سَلسَ الْقياد للشَّهْوَة، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالادّخَارِ، لَيْسَا من رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيءٍ، أَقْرَب شَيءٍ شَبَهاً بِهِمَا الأَنْعَامُ السَّائمَةُ »[٤].

ثانياً ــ الاهتمام السّلبي:

وهنا قسم من الناس يدركون مدى التخلّف والانهيار العميق الذي تعيشه الأمّة ويتألّمون للأوضاع المأساوية التي تُعاني منها، ولكنّهم يلقون بالمسؤولية على عاتق المجهول، فلا يرون لأنفسهم نصيباً في تحمّل مسؤولية ما يجري ولا يلزمون أنفسهم بالقيام بأيّ دور تغييري.

فمسؤولية الواحد منهم تنتهي عند حدود إصلاح نفسه، فعليه أن يحافظ على الصّلاة وأن يؤدّي الحقوق الشّرعية، وأن يجتنب المحرّمات، وحينما تحين منه التفاتة إلى الواقع المؤلم، يكرّر:«

---

[٢] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٥).

[٣] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٥).

[٤] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ١٤٧).

لا حول ولا قوة إلاّ بالله »، و« إنّا لله وإنّا إليه راجعون »، ويحمد الله على نجاته شخصياً من الانحراف مردّداً قول شاعرهم:

ومــا أُبــالــي إذا نــفسي تطــاوعــني

على النّجاة بمن قد ضلّ أو هلــكــا

فهل صحيح أنّ الإنسان مكلّف بإصلاح نفسه فقط، وما عليه بعد ذلك إذا فسد العالم كلّه؟ وهل صحيح أيضاً أنّ الله سيحاسبنا يوم القيامة عن الصلاة والصوم والوظائف الشّخصية فقط، وسوف لا يطالبنا بأيّ عمل اجتماعي أو دور إصلاحي؟ هذا ما سيتّضح الجواب عليه خلال الفقرة التّالية.

ثالثاً ـــ موقف المسؤولية:

ويعني: أن يعتبر الإنسان نفسه مسؤولاً عمّا يحدث، ويرى نفسه مطالباً بالقيام بدور ما لإصلاح الواقع المعاش، ويعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى سيسأله ويحاسبه يوم القيامة عن دوره في المجتمع ومسؤوليته في الحياة، وهذا هو الموقف الصّحيح الّذي تفرضه الحقائق التّالية:

١ ـــ لو سألنا الله تعالى عن الهدف الّذي أوجدنا من أجله على سطح هذه الكرة الأرضية، لوجدنا الجواب من قبل الله صريحاً في آيات القرآن الكريم التي تعلن أنّ الهدف من وجودنا على ظهر الأرض، هو إصلاح الأرض وعمارتها، فالإنسان خليفة الله في الأرض وممثّله ونائبه علـــى ظهر هذا الكوكب.

فعند خلق آدم أبي البشر، قال الله تعالى للملائكة: **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَة }**[٥]، وفي آية أُخرى يقول تعالى:**{ هُوَ الَّذي جَعَلَكُم خَلائفَ الأَرض }**[٦]، ويقول تعالى:**{ هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُم فِيهَا }**[٧].

وإذا كُنّا خلفاء الله في الأرض ونوّابه والممثّلون له، ألسنا بعد ذلك مسؤولين عمّا يجري على الأرض؟ فالتّاجر الّذي يخلف في متجره خليفة عنه أليس من حقّه أن يحاسبه عمّا يجري في المتجر؟ والرّجل الّذي يعيّن ممثلاً له في أحد أعماله وشؤونه ألا ينتظر من ذلك الممثّل الإصلاح ودفع الأضرار؟

وبالضّبط فإنّ الله حينما يجعلنا خلفاءه في الأرض سيُطالبنا بإصلاحها وبمكافحة الفساد على وجهها:**{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}**[٨]، **{فَلَوْلا كَانَ**

---

[٥] سورة البقرة: (الآية: ٣٠).

[٦] سورة الأنعام: (الآية: ١٦٥).

[٧] سورة هود: (الآية: ٦١).

[٨] سورة يونس: (الآية: ١٤).

منَ القُرُون منْ قَبْلكُمْ أُولُواْ بَقيَّة يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَاد في الأرْض}[٩]، { الَّذينَ إنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الأرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بالْمَعْرُوف وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ }[١٠].

وبعد أن عرفنا أنّ الهدف من وجودنا هو عمارة الأرض وإصلاحها وإقامة الخير والحقّ على ربوعها، هل يصحّ لنا أن نأخذ موقف المتفرّج والمشاهد للمآسي التي تحدث أمامنا على وجه الأرض؟

يقول الإمام علي(عليه السلام) في[نهجه] الخالد: «فَإِنَّكُم مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبُقَاعِ وَالْبَهَائِم»[١١].

٢ ـــ وهذا الدين الإسلامي العظيم الّذي أنزله الله لُينقذ به حياة البشرية من شقاء الجهل والانحراف، ويحلّق بهم في أجواء السّعادة والكمال...هذا الدين هل أنزله الله ليبقى في حدود الممارسات الفردية، أم أنزله لينظّم كلّ جوانب الحياة؟

لا يشكّ مسلم في أنّ الله تعالى إنّما أنزل الإسلام ليسود المعمورة ويوجّه البشرية جمعاء، يقول القرآن الكريم:{ **هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدين الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه** }[١٢].

ويقول تعالى:{ **لَقَد أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بِالبَيّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالميزَانَ لِيَقُومَ النَّاس بِالْقسط** }[١٣].

وفي آية أخرى:{ **إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَينَ النّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ** }[١٤].

ولكن كيف يطبّق الإسلام في الحياة؟

هل يكون ذلك عن طريق تدخّل مباشر من قبل الله كأن يترل ملائكته أو يرسل جناً، يفرضون الإسلام ويجسّدونه في واقع الحياة؟ أو هل يهلك الله بشكل غيبي كلّ من لا يلتزم بالإسلام؟

إنّ التّدخّل السّماوي المباشر يفقد الحياة قيمتها، فالحياة الدنيا إنما خلقها الله لتكون قاعة ابتلاء وامتحان يأخذ البشر فيها حرّيتهم الكاملة... وإنما يريد الله تطبيق الدين عن طريق البشر أنفسهم، حيث يقوم الملتزمون بالدين بدورهم في العمل والنّشاط والجهاد من أجل تطبيق الدين، تماماً كما

---

[٩] سورة هود: (الآية: ١١٦).

[١٠] سورة الحج: (الآية: ٤١).

[١١] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٦٧).

[١٢] سورة التّوبة: (الآية: ٣٣).

[١٣] سورة الحديد: (الآية: ٢٥).

[١٤] سورة النّساء: (الآية: ١٠٥).

أنّ النُّظم المعاصرة كالشّيوعية والرأسمالية لها جهات وأجهزة وأُناس يعملون على نشرها وتطبيقها، فكذلك الإسلام يجب أن يعمل أبناؤه على نشره وتطبيقه.

وحينما فرض الله تعالى على بني إسرائيل محاربة أعدائهم فتكاسلوا وطلبوا من الله أن يقوم هو مع نبيّه بالمهمّة، فبماذا أجابهم الله، وماذا كان مصيرهم؟

يحدّثنا القرآن الكريم عن القصّة فيقول:{ **يَا قَوْمِ ادْخُلُواْ الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُواْ خَاسِرِينَ. قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }**[١٥] .

فإذا كُنّا نعتقد أنّ الإسلام إنّما أنزله الله ليطبّق في الحياة، وأنّ الله لا يتدخّل غيبياً لتطبيقه، فإنّ مسؤولية تطبيق الإسلام في الحياة ستكون على عاتقنا نحن المؤمنين. يقول تعالى:{ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُون الرَّسُول عَلَيكُم شَهِيدَا}**[١٦] .

{ كُنْتُم خَيْرَ أُمَّة أُخرِجَت لِلنَّاسِ تَأْمُرُون بِالْمَعْرُوف وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[١٧] .

من هنا نعرف أنّ مسؤوليتنا تتعدّى حُدود الالتزام الفردي بالإسلام إلى مسؤولية التّغيير الاجتماعي والإصلاح العام وفق مبادئ الإسلام.

٣ــ وإذا بقي المتديّنون ملتزمين بدينهم محافظين على صلاتهم وصومهم دون أن يكون لهم دورٌ اجتماعي أو عمل تغييري، فماذا ستكون النّتيجة؟

إنَّ النّتيجة الحتمية لهذا التّقاعس من جانب المتديّنين هـــــــي توسيع جبهة الباطل والفساد، وبالتّالي سيطرة الظّالمين والأشرار على المجتمع، واستيلاؤهم على أزمة الأُمور، لأنّ هذا هو منطق الحياة الاجتماعية وطبيعتها.

يقول تعالى:{ **وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْض}**[١٨] .

---

[١٥] سورة المائدة: (الآية: ٢١ــ٢٦).

[١٦] سورة البقرة: (الآية: ١٤٣).

[١٧] سورة آل عمران: (الآية: ١١٠).

[١٨] سورة البقرة: (الآية: ٢٥١).

وبعد أن يسيطر الأشرار على المجتمع، ويحكمون قبضتهم على شؤونه، عندها هل يسْلم المصلّون الصّائمون من ظلم الأشرار ومضايقاتهم، أم سيكونون أوّل ضحاياهم؟.

إنّ تجارب التّاريخ وأحداث الماضي تدلُّ على أنَّ الأشرار حينما يمتلكون زمام المجتمع سوف لا يتساهلون مع أي بريء أو هادئ، وسوف لا يتركون المصلّين يؤدُّون صلاتهم وطقوسهم بحرية وراحة.

فما العلاج إذاً؟.. إنّنا في حاجة إلى الوقاية قبل أن نضطرّ إلى العلاج، وذلك بأن نبدأ بمكافحة الفساد والظُّلم والانحراف، قبل أن يتفاقم ويستولي علينا ويمنعنا حتّى عن الالتزام الفردي بالواجبات، وهذا هو الحلّ الّذي يفرضه علينا الدين. يقول تعالى:{ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظلمُوا مِنكُم خَاصّة** }[١٩] .

ويقول الإمام (عليه السلام): « لاَ تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُم شِرَارُكُم ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَاب لَكُم »[٢٠] . وفي موضع آخر من[نهج البلاغة] يقول الإمام(عليه السلام):« لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَن تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَع فِيكُم مَنْ لَيْسَ مِثْلُكُم وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُم »[٢١] .

٤ ــ إنّ الدّين يحمّلنا –بصراحة– مسؤولية سوء الأوضاع، ويفرض علينا العمل من أجل تغييرها وإصلاحها، فالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فريضتان شرعيتان لا تقلاّن عن الصّلاة والصّوم في مستوى الأهمية. يقول الله تعالى:{ **وَقِفُوهُم إِنَّهُم مَسْؤُلُون** }[٢٢] .

ويقول تعالى:{ **وَلتَكُنْ منكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولئكَ هُمُ المفْلحُونَ** }[٢٣] . ويقول الرّسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم):«كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عَنَ رَعِيَّتِهِ»[٢٤] .

---

[١٩] سورة الأنفال: (الآية: ٢٥).

[٢٠] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٧).

[٢١] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٦٦).

[٢٢] سورة الصّافات: (الآية: ٣٤).

[٢٣] سورة آل عمران: (الآية: ١٠٤).

[٢٤] [صحيح مسلم]: (ج٣/ص١٤٥٩).

ويقول الإمام في [نهجه] العادل: « مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَن يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا »[٢٥] . « وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ -شدّة امتلاء البطن-، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ -شدّة الجوع-، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا »[٢٦] .

بل ويعتبر الدّين السّكوت والتفرّج على ما يجري، اشتراكاً عملياً في الجريمة يستحقّ به صاحبه العذاب والعقاب، فعن الإمام أبي جعفر محمّد الباقر (عليه السّلام): «إنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ شُعَيب أَنِّي مُعَذِّبٌ مِنْ قَوْمِكَ مَائَةَ ألف، أربعين من شرارهم وستّين من خيارهم! قَالَ شُعيب: يَا رَبِّ، هَؤلاءِ الأَشْرَار فَمَا ذَنْبُ الأَخْيَارِ؟ قَالَ: لأَنَّهُم دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي»[٢٧] .

ويروي الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) عن جدِّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:« مَنْ رَأَى سُلْطَاناً جَائِراً، مُسْتَحِلاً لِحَرَامِ اللهِ، نَاكِثاً لِعَهْدِ اللهِ، مُخَالِفاً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللهِ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّر مَا عَلَيْهِ بِقَولٍ وَلاَ بِفِعْلٍ كَانَ حَقاً عَلَى اللهِ أَنْ يدْخله مَدْخلَه »[٢٨] .

وفي[نهج البلاغة] يقول الإمام (عليه السلام):« الرَّاضِي بفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فيه مَعَهُم »[٢٩] .

ويقول (عليه السّلام): « إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:{ **فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادمِينَ** }[٣٠] »[٣١] .

ويقول (عليه السلام) أيضاً: « فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِي بَيْنَ أَيْدِيكُم إِلاَّ لِتَركِهِم الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي »[٣٢] .

---

[٢٥] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٤٧٨).

[٢٦] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٣).

[٢٧] [بحار الأنوار]: محمد باقر المجلسي (ج١٢/ص٣٨٦) الطبعة الثّانية (١٩٨٣م)، مؤسسة الوفاء ـــ بيروت.

[٢٨] [حياة الإمام الحسين]: باقر شريف القرشي (ج٣/ص٨٠)، الطبعة الأولى ـــ مطبعة الآداب، النجف الأشرف (١٩٧٦م).

[٢٩] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ١٥٤).

[٣٠] سورة الشّعراء: (الآية: ١٥٧).

[٣١] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٠١).

[٣٢] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٩٢).

الخلاصة:

١/ إنّ الواقع الّذي نعيشه هو واقع مأساوي ومتخلّف جداً.

٢/ إنّ موقف اللامبالاة الذي يقفه أكثر الناس من أوضاع الأمّة هو موقف لا إنساني يجعل الإنسان يعيش في نفس مستوى واهتمامات الحيوانات.

٣/ موقف التفرُّج والسّلبية من الأحداث هو الآخر موقف أناني خاطئ.

٤/ أمّا الموقف الصّحيح والسَّليم فهو تحمُّل المسؤولية والقيام بدور الإصلاح والتّغيير.

٥/ وهذا الموقف الأخير الواعي تفرضه عدَّة حقائق أهمُّها:

أ – إنَّ الهدف من وجود الإنسان هو خلافة وتمثيل الله في الأرض.

ب – وضرورة تطبيق الدّين والذي لا يتحقّق إلاّ بعمل المتديّنين.

ج – وانطلاقاً من طبيعة الصِّراع بين الحقّ والباطل والتي تستلزم تضافر قوى الحقّ، وإلاّ انتصر الباطل وصادر حريّة وكرامة أهل الحق.

د – وأخيراً لأنّ الدِّين يحمّلنا بكلّ صراحة مسؤولية ما يحدث، ويفرض علينا مواجهة الأحداث وتغيير دفّة سيرها.

الجهاد في نهج البلاغة

يقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السّلام) في [نهج البلاغة]:

« أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّة فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّة أَوْلِيَائِه، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلاَءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ ـــ أي ذُلِّل بالصّغار والإهانة ـــ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِه بِالإِسْهَابِ ـــ الثّرثرةـــ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ ـــ أي كلف المشقّة ـــ وَمُنِعَ النَّصَفَ »[1].

أهمية الجهاد:

إنَّ من يطّلع على مصادر التشريع الإسلامي من الـــكتاب والسّنة يجد فيهما تركيزاً كبيراً واهتماماً ضخماً بموضوع الجهاد.. ففي القرآن الـــكـــريم ما يُقارب (٤٠ آية) تتحدّث عن الجهاد بلفظ الجهاد ومشتقاته، كقوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ وَالمنَافقِينَ وَاغلُظْ عَلَيهِم }[2].

{ إنْفرُوا خفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهدُواْ بِأَمْوالكُمْ وَأَنفُسكُمْ في سَبيلِ الله }[3].

{ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً }[4].

وهناك أكثر من (١٠٠ آية) تتحدّث عن الجهاد بلفظ القتال ومشتقّاته كقوله عزّ وجلّ:

{ فَقَاتِلُوا أَئمَّةَ الكُفْرِ إنَّهُمْ لاَ إِيمانَ لَهُم }[5].

{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فتنةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله}[6].

{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْواتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }[7].

بالإضافة إلى مجموعة من الآيات تتحدّث عن الجهاد بلفظ الغزو والحرب والشّهادة ومشتقّاتها.

---

[1] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٧).

[2] سورة التّوبة: (الآية: ٧٣).

[3] سورة التّوبة: (الآية: ٤١).

[4] سورة النّساء: (الآية: ٩٥).

[5] سورة التّوبة: (الآية: ١٢).

[6] سورة الأنفال: (الآية: ٣٩).

[7] سورة آل عمران: (الآية: ١٦٩).

بينما لا نجد في القرآن الحكيم عن الحجّ إلاّ (٨ آيات) فقط، وعن الخُمس آية واحدة لا غير، وعن الصّوم (١٠ آيات) تقريباً.

وحينما نرجع إلى السّنة المطهّرة نجد مئات الأحاديث والنُّصوص تركّز على موضوع الجهاد وتقرّر بصراحة: أنّ الجهاد أهمّ وأفضل من جميع الأعمال والعبادات الأخرى.

فعن الرّسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): « فَوقَ كُلِّ ذِي بِرٍ برٌ حَتَّى يُقْتَل فِي سَبيلِ اللهِ فَإذَا قُتِلَ فِي سَبيلِ اللهِ فَلَيْسَ فَوْقَه بر »[٨].

ويقول الإمام محمد الباقر (عليه السّلام): « الْجِهَادُ الَّذي فَضَّلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ عَلَى الأَعْمَالِ وَفَضَّل عَامِلَه عَلَى العُمّالِ تَفْضِيلاً فِي الدَّرَجَاتِ وَالْمَغْفِرَة »[٩].

وفي مصدر واحد فقط من مصادر الحديث هو كتاب [وسائل الشِّيعة إلى تحصيل مسائل الشَّريعة] نجد (١٢٢٣حديثاً) عن الجهاد وفضله وأحكامه وما يتعلّق به.

وإذا ما قُمنا بجولة عابرة في ربوع[نهج البلاغة]، فسنرى أنّ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، يعطي للجهاد مكانة خاصّة، ويرفعه إلى أعلى مستوى من الأهمية والتّقدير، ويمنحه أعظم الصّفات، حيث يقول (عليه السّلام): « الْجِهَادُ عِزُّ الإسْلام »[١٠].

« الله. الله، فِي الْجِهَاد بِأَمْوالكُمْ وَأَنفُسكُم وَأَلْسنَتكُمْ فِي سَبيلِ الله »[١١].

« وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَاده وَلاَ تَأْخُذَكَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِم »[١٢].

« إنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِه الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإيمَانَ بِه وَبِرَسُولِه وَالْجِهَادُ فِي سَبيله، فَإنَّهُ ذُرْوَةُ الإسْلام »[١٣].

وكان الجهاد يشكّل عند المسلمين الأوائل جزءاً لا ينفصل من حياتهم العملية. فكانوا يرون فيه طريقاً سريعاً ومختصراً إلى الجنّة فينتظر كلّ واحد منهم فرصته الغالية في الجهاد في سبيل الله ويتاسبقون إليه ويستبشرون به.

فهذا حنظلة بن أبي عامر، وقد أنفق شبابه في العمل والكدح، حتى جمع له مبلغاً من المال ليتزوّج به، وفي أوّل ليلة من زواجه، وقد بدأ يقطف ثمرة أتعابه، ويعيش في ربيع أحلامه وأمانيه، سمع منادي الجهاد عند الفجر وأطلّ من نافذة داره، فرأى المسلمين يحثّون السّير، ويركضون

---

[٨] [الكافي]: الكليني الرازي: (ج٥/ص٥٣).

[٩] [الكافي]: الكليني الرازي: (ج٥/ص٣).

[١٠] [نهج البلاغة]: (قصار الحكم رقم: ٢٥٢).

[١١] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٧).

[١٢] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٣١).

[١٣] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١١٠).

ملبّين داعي الجهاد، فما كان منه إلاّ أن أسرع للخروج قبل أن يغتسل غُسل الجنابة، وحاولت زوجته مقاومته ومنعه واستثارة عواطفه، ودغدغة مشاعره، ولكنّه رفض البقاء، وأصرّ على الخروج، فاستشهد في صبيحة يوم عرسه.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « إِنَّ صَاحِبَكُم -يعني حنظلة- لَتَغْسِلُهُ الْمَلائِكَة». فسألوا أهله: ما شأنه؟! فسئلت صاحبته عنه، فقالت: خرج وهو جنب سمع الهاتفة»[١٤] .

وهذا عمرو بن الجموح، وقد قطعت السّنين شوطاً كبيراً من عُمره وأصيب في إحدى الغزوات في رجله فصار أعرجاً، ولكنّه رغم ذلك حينما سمع منادي الجهاد، ورأى أولاده الأربعة يتجهّزون للخروج لم تسمح له نفسه بالتخلُّف رغم معارضة أولاده وزوجته، فخرج مهرولاً يقول: أريد أن أطأ بعرجتي الجنّة.

فأراد أهله وبنوه حبسه، وقالوا له: إنّ الله عزّ وجلّ قد عذرك. ولم يقتنع بمقالتهم، وأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إنّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلّم): أمّا أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك. ثمّ قال لبنيه وقومه: لا عليكم أن لا تمنعوه لعلّ الله يرزقه الشّهادة. فخلّوا عنه، وخرج وهو يقول: اللهمّ أرزقني الشّهادة ولا تردّني إلى أهلي. وقد كان موقف هذا المجاهد الأعرج من مشاهد معركة « أحد » العظيمة ومن قصصها الرائعة، فقد كان يحمل على الأعداء وهو يقول: أنـــــا والله مُشتاق إلى الجنّة. وابنه يعدو في أثره حتى قتلا جميعاً[١٥] .

والقاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب ولم يَكُ عمره يتجاوز الرّابعة عشرة يتقدّم إلى عمّه الحسين ليلة عاشوراء، وبعد أن أخبر الإمام أصحابه بالمصير الّذي ينتظرهم صباح عاشوراء، وهو الشّهادة في سبيل الله حيث قال لهم: يا قوم إنّي غداً أُقتل وتقتلون كلّكم معي ولا يبقى منكم واحد. فقالوا: الحمد لله الّذي أكرمنا بنصرك وشرَّفنا بالقتل معك.. وهنا تقدّم القاسم لعمّه الحسين (عليه السلام) قائلاً: وأنا فيمن يُقتل؟ وقبل أن يجيبه الإمام سأله: يا بني كيف الموت عندك؟ فأجاب القاسم فوراً: يا عمّ أحلى من العسل »[١٦] .

الظّاهرة الغريـــبة:

---

[١٤] [السيرة النبوية]: ابن هشام (ج٣/ص٢٥)، دار الجيل ـــ بيروت.

[١٥] [سيد المرسلين]: الشيخ جعفر السبحاني (ج٢/ص١٧٤)، الطبعة الأولى، مؤسسة النّشر الإسلامي ـــ قم.

[١٦] [نفس المهموم]: الشيخ عباس القمي (ص٢٣٠)، مكتبة بصيرتي ـــ قم.

ولكن رغم هذا الاهتمام والتّركيز الإسلامي على الجهاد، ومع أنّنا نمتلك تاريخاً ضخماً من النّضال والتّضحية إلاّ أنّ الملاحظ أنّ الجهاد في واقع المتديّنين المعاصرين أصبح في سلّة المهملات حتى صار الحديث عن الجهاد عند المتديّنين كلاماً مثالياً خيالياً ليس هذا وقته.

والظّاهرة الغريبة هو هذا الفصل المتعمّد بين التديّن والجهاد، ففي القضايا المصيرية التي تعيشها الأمّة كقضية فلسطين والفلبين ترى أنّ المتدينين لا وجود لهم على ساحة المعركة ولا في جبهات القتال بينما غير المتديّنين هم الذين يرفعون لواء المقاومة والنّضال![١٧] .

فالشيوعيون لهم منظّماتهم العاملة في السّاحة، والبعثيون لهم دورهم ونشاطهم في القضية، واللاملتزمون بالدين يبذلون أنفسهم ويضحّون من أجل التّحرير، ولكن أين دور المتديّنين؟

أليست قضيّة فلسطين وأمثالها قضايا إسلامية تهمّ الدين والأمّة، لماذا أخلى المتديّنون السّاحة للملاحدة والمنحرفين؟ ـــ طبعاً ليس كلّ المناضلين منحرفين، وإنما الأغلب وخاصّة القياديون منهم ـــ.

هل نسخت فريضة الجهاد فلم تعد واجبة ولا مطلوبة من المتديّنين؟ أم أنّ الأمّة أصبحت في غنى عن الجهاد؟

وإلاّ فلماذا تقاعس المتديّنون عن الجهاد، ولماذا أهمل الحديث عن الجهاد وصار حديثاً غير عملي ولا واقعي؟

سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة التي تفرض نفسها في الفقرات التّالية:

محاربة سلبيات النّفس والرُّؤى المتخلّفة ـــ الجهاد الأكبر:

الرُّؤى الموجودة في نفس الإنسان والمفاهيم التي ينطوي عليها تفكيره هي التي تحدّد تصرّفاته وتوجّه حركاته.. فمثلاً ترى بعض الأثرياء يشتري أرضاً جرداء بعيدة عن المناطق السّكنية لو عرضت على إنسان آخر لما وافق على شرائها بأبخس ثمن، وحينما تبحث عن السّبب الذي دفع الأول إلى شراء تلك الأرض، والسّبب الذي جعل الثّاني يعرض عن شرائها تجد أنّ السّبب هو الرُّؤية المستقبلية الموجودة عند الأوّل حيث يفكّر فيما بعد سنوات حينما يمتدّ العمران وتصبح تلك الأرض الجرداء مهمّة وغالية، وبهذه الرُّؤية وهذا التّفكير اندفع لشراء الأرض بينما الشّخص الآخر لم يكن يمتلك هذه الرُّؤية لذلك أعرض عن شرائها.

وهكذا تتحكّم الرُّؤى في توجيه الإنسان وتحديد تصرّفاته.

---

[١٧] كان هذا الكلام منطبقاً على أوضاع الفترة السّابقة قبل انبثاق الصّحوة الإسلامية المباركة، أمّا الآن فتضحيات وجهاد الحركات الإسلامية هي مبعث الأمل بالتّحرير والاستقلال كالمقاومة الإسلامية في فلسطين ولبنان وغيرهما.

والجهاد وهو أخطر تصرّف في حياة الإنسان يحتاج إلى رؤية معيّنة تدفع الإنسان إليه، وأُمّتنا الإسلامية في الماضي كانت تمتلك تلك الرُّؤى المطلوبة، ولذلك اندفعت في طريق الجهاد بقوّة وشوق، أمّا المتدينون حالياً فهم غالباً ليس فقط يفقدون تلك الرُّؤى الجهادية، وإنما تكبّل نفوسهم رؤى مضادّة وسلبيات متخلّفة هي التي أوجدت بينهم وبين الجهاد هذا البون الشّاسع والهوّة الكبيرة.

ومن هذا المنطلق فإنّ الإسلام يركّز أوّلاً على هذا الجانب، ويرى أنّ مكافحة سلبيات النّفس وكنس الرُّؤى المتخلّفة من داخل الإنسان وزرع مفاهيم الجهاد والنّضال في روح الفرد، هذا العمل هو الجهاد الأكبر وهو الذي يجعل الإنسان على أتمّ الاستعداد للجهاد والتّضحية والفداء في كلّ لحظة وحينما تدعو الحاجة إلى ذلك.

يقول الإمام علي (عليه السّلام): إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث سرية –فرقة صغيرة من الجيش– فلمّا رجعوا، قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النّفس.

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): « إنّ أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه »[١٨] .

السَّلبيات والرُّؤى المتخلّفة:

والآن ما هي السّلبيات التي تعشّش في نفس الإنسان فتقعد به عن الجهاد، وما هي الرُّؤى المتخلّفة التي تترسّب في تفكير الفرد فتمنعه عن الانطلاق وتحرمه من شرف النّضال والتّضحية، وكيف يعالج الإسلام هذه المشكلة فيقاوم تلك السّلبيات بنسف تلك الرُّؤى، وما هي المفاهيم والرُّؤى البديلة التي يلقح الإسلام بها نفسية الفرد؟

نستطيع أن نلخّص الجواب فيما يلي:

١ـــ الانشداد للحياة وحبّ الرّاحة: فكلّ إنسان بطبيعته يحب الحياة ويتشبّث بها ويبحث عن الرّاحة ويحافظ عليها. والجهاد يسلب من الإنسان راحته ويعرّضه لفقدان حياته، وهنا تبدأ المعركة وينشب الصّراع بين نفس الإنسان الرّاغبة في الحياة والرّاحة، وبين روح الالتزام بفريضة الجهاد الدّاعية إلى الفداء والتّضحية، فإذا كان الإنسان عميق الإيمان متشبّعاً برؤى الإسلام تغلب على سلبيات نفسه، وسارع إلى التّضحية والجهاد، وإلاّ كان من المتخلّفين المتقاعسين.

وبصراحة موضوعية يعالج الدّين هذه المشكلة فيتحدّث مع الإنسان بمنطق واقعي صارخ: أيّها الإنسان المتقاعس عن الجهاد خوفاً من الموت واحتفاظاً بالرّاحة والحياة.. هل أنت ضامن لنفسك

---

[١٨] [تفصيل وسائل الشّيعة]: الحر العاملي (ج١٥/ص١٦٣) مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث ـــ قم.

استمرار هذه الرّاحة ودوام هذه الحياة؟ ألا تتوقّع مرضاً يسلبك راحتك أو حادثاً يصادر حياتك؟ وهل أنت آمن من زيارة ملك الموت؟ وإذا كان الجواب بالتّأكيد كلا، فلماذا تفوّت على نفسك الفرصة وترضى بموتة رخيصة دون أيّ ثمن أو مقابل، بينما باستطاعتك أن تستفيد من موتتك وتربح عزاً وكرامةً وثواباً جزيلاً؟

ومن ناحية أُخرى، ألست تؤمن بالآخرة، وأنّ هناك جنّةً وناراً؟ فلماذا تعرّض نفسك للنّار بتقاعسك وتخسر الجنّة العظيمة الخالدة من أجل الاحتفاظ ببضعة أيّام أو سنوات في هذه الحياة المرهقة؟

يقول الله تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ. إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ** }[١٩] .

ويقول الإمام في [نهجه] الخالد: « إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاَ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةٍ »[٢٠] .

وفي خطبة أخرى يقول (عليه السّلام): « وَأَيْمَ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لاَ تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ... إِنَّ فِي الْفِرَارِ مُوجِدَةَ –غضب– اللهِ، وَالذُّلَّ اللاَّزِمْ، وَالْعَارَ الْبَاقِي. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ مِنَ الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! »[٢١] .

ويقول الإمام الحسين بن علي(عليه السلام):

لَئِنْ كَانَتِ الدُّنْيَا تعَدُّ نَفِيسَةً

فَدَارُ ثَوَابِ اللهِ أَعْلَى وَأَنْبَلُ

وَإِنْ كَانَتِ الأَبْدَانِ لِلْمَوْتِ أُنشِئَتْ

فَقَتْلُ امْرِيءٍ بِالسَّيْفِ فِي اللهِ أَفْضَلُ[٢٢] .

---

[١٩] سورة التوبة: (الآية: ٣٨ـ٣٩).

[٢٠] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٣).

[٢١] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٢٤).

[٢٢] [حياة الامام الحسين]: باقر شريف القرشي (ج٣/ص٦١)، الطبعة الأولى(١٩٧٦م)، مطبعة الآداب ـ النجف.

٢ــ الفهم الخاطئ للحياة والدين: فأكثر النّاس يفهمون الحياة على أنّها أكل وشرب ولذّة ونوم فقط، وعلى الإنسان أن يوفّر هذه الأشياء لنفسه، أمّا العزّ والكرامة والشّرف فليست أشياء ضرورية إن توفّرت بالمجان، وإلاّ ففي الأكل واللذّة والرّاحة نعم الكفاية.

ويقول شاعرهم:

إنّما الدُّنيا شراب وطعام ومنام

فإذا فاتك هـــذا فعلى الدُّنيا السّلام

أمّا الإنسان المؤمن الواعي فيفهم الحياة على أنّها عزّ وكرامة وشرف، فإن لم تتوفّر هذه الأشياء فلا قيمة للحياة إذاً في أوحال الذلّ والإهانة والخنوع. يقول الإمام (عليه السلام) في [نهجه] العظيم:« الْموتُ فِي حَيَاتكُمْ مَقْهُورينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتكُم قَاهرينَ »[٢٣] .

ويقول شبله الإمام الحسين الثّائر (عليه السلام): « إِنِّي لاَ أَرَى الْمَوْتَ إِلاَّ سَعَادَةً وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالمينَ إِلاَّ بَرَمًا »[٢٤] .

وهناك قطاع آخر من النّاس يعانون من سوء الفهم لموضوع الجهاد في الدّين، فيقولون: إنّ ظروف الجهاد غير متوفّرة حيث لا يوجد إمام معصوم يأذن للجهاد.. وهذه مغالطة يكتشفها من له أدنى إطّلاع على فقه الجهاد في الإسلام، فالجهاد يقسّمه الفقهاء إلى قسمين:

أ ــ جهاد الغزو في سبيل الله لنشر الإسلام في المجتمعات الأُخرى وإعلاء كلمة الله في الأرض، وهذا الجهاد هو الّذي يشترط فيه قيادة الإمام أو إذنه، ويكون وجوبه كفائياً إذا قامت به فئة من الأمة سقط الوجوب عن الباقين، يقول الإمام علي (عليه السلام) في هذا المجال: « لاَ يَخْرُج الْمُسْلمُ فِي الْجِهَاد مَعَ مَنْ لاَ يُؤمن عَلَى الْحُكْم ــ يعني القيادة غير الشّرعية ــ، ولا ينفذ فِي الْفَيء أمْر الله عَزَّ وَجَلَّ ــ يعني ليست قيادة عادلة ــ »[٢٥] .

ب ــ جهاد الدّفاع عن الدين أو عن الوطن أو عن حقوق الشّعب أو عن النّفس والمال والعرض أو عن المحرومين والمظلومين. وهذا النّضال مشروع بل واجب على كلّ فرد ولا يحتاج إلى إذن الإمام أو المرجع، وإذا قُتل المجاهد عن أحد هذه الأهداف السّامية أُعتبر شهيداً عند الله.

يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم):« مَنْ قُتلَ دُونَ عيَاله فَهُوَ شَهيدٌ، وَمَنْ قُتلَ دُونَ مَظْلَمَته ــ حقوقه ــ فَهُوَ شَهيدُ، وَمَنْ قُتلَ دُونَ مَاله فَهُوَ شَهيدٌ »[٢٦] .

---

[٢٣] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٥١).

[٢٤] [بحار الأنوار]: محمد باقر المجلسي (ج٤٤/ص١٩٢).

[٢٥] [الخصال]: الشيخ الصدوق (ج٢/ص٦٢٥).

[٢٦] [تفصيل وسائل الشيعة]: الحر العاملي (ج١٥/ص١٢٠ــ١٢١)، مؤسسة آل البيت ــ قم.

وقد أفرد الحر العاملي في موسوعته الحديثية [وسائل الشّيعة] باباً في كتاب « الجهاد » هو الباب (رقم: ٤٦) تحت عنوان « باب جواز قتال المحارب واللصّ والظّالم والدّفاع عن النّفس والحريم والمال وإن قلّ، وإن خاف القتل ».

وقد أثبت في ذلك الباب سبعة عشر حديثاً، وآخرها حديث يقول: كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول: « مَن دخل عليه لص فليبدره بالضّربة فما تبعه من إثم فأنا شريكه فيه »[٢٧]

.

وفي[نهج البلاغة] نجد الإمام يعاتب قوماً ويوبّخهم لأنّهم لم يقاوموا المعتدين عليهم من جيش معاوية، يقول (عليه السّلام): « ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُم كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُم دَمٌ»[٢٨] ، ويقول (عليه السلام):« فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ » [٢٩] .

ويقول أستاذ الفقهاء الشيخ محمد حسن النّجفي صاحب [الجواهر]:« تلخّص ممّا ذكرنا أنّ الجهاد على أقسام:

أحدها ــ أن يكون ابتداء من المسلمين للدّعاء إلى الإسلام، وهذا هو المشروط بالشُّروط المزبورة. والذي وجوبه كفائي.

الثّاني ــ أن يدهم المسلمين عدو من الكفّار يخشى منه على البيضة، أو يريد الاستيلاء على بلادهم، وأسرهم وسبيهم وأخذ أموالهم. وهذا واجب على الحرّ والعبد، والذّكر والأنثى، والسّليم والمريض، والأعمى والأعرج وغيرهم، إن احتيج إليهم. ولا يتوقّف على حضور الإمام (عليه السّلام) ولا إذنه، ولا يختصّ بمن قصدوه من المسلمين، بل يجب على من علم بالحال النُّهوض إذا لم يعلم قدرة المقصودين على المقاومة، ويتأكّد الوجوب على الأقربين »[٣٠] .

٣ــ الأعذار المزيّفة: وهناك قسم من النّاس يؤمن بضرورة العمل والجهاد، ولكنّه يبرّر جموده وتقاعده بأعذار مزيّفة، فتارة يحتج بإتمام دراسته أو بمسؤوليته التجارية، وأخرى يتعذّر بعائلته وأولاده، وثالثة يلقي اللوم على الظّروف الحرجة... وهنا يأتي القرآن الكريم لينسف هذه الأعذار بقوّة وليشجب التّعلّل بها، ويهدّد أصحابها بسوء المصير.. فيقول الله تعالى:**{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ**

---

[٢٧] [تفصيل وسائل الشيعة]: الحر العاملي (ج١٥/ص١٢٣).

[٢٨] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٧).

[٢٩] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٧).

[٣٠] [جواهر الكلام]: الشيخ محمد حسن النجفي (ج٢١/ص١٨).

وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ منَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }[٣١] .

وحينما أُبتلي الإمام علي (عليه السّلام) بأصحاب متقاعسين يبرّرون تقاعسهم بتغيّر الظّروف والأحوال خطب فيهم خطبة عنيفة جاء فيها:« فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ: هَذِه حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ! وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُم: هَذِه صَبَارَّةُ القُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ، كُلُّ هَذَا فِرَاراً منَ الْحَرِّ وَالقُرِّ، فَإِذَا كُنْتُمْ منَ الْحَرِّ وَالقُرِّ تَفرُّونَ، فَأَنْتُمْ وَاللهِ منَ السَّيْفِ أَفَرُّ! يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ »[٣٢] .

٤ــ **الثّورة الكلامية:** وبعض النّاس يكتفي من الجهاد بحماسة الكلام وثورية الكتابة والخطابة، ولكنّه حين تُطلب منه تضحية عملية ونضال حقيقي ومهمّة جهادية تراه ينهزم ويفرُّ بعيداً بعيداً.

في هذا المجال يقول الإمام في[نهجه] العادل مخاطباً بعض أصحابه المتّصفين بهذه الصّفة الخادعة:« أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلاَبَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ -يعني بعيداً بعيداً-»[٣٣] .

بماذا ولماذا الجهاد؟

في مواجهة الاستعمار والظُّلم والانحراف يحتاج الإسلام إلى مختلف الطّاقات والأسلحة، فالإعلام سلاح والقلم سلاح، والنّشاط سلاح والمال سلاح والتّحرّك الاجتماعي سلاح... والمعركة تتطلّب كلّ هذه الأسلحة، ولذلك يقرن الرّسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) مال خديجة بسيف علي كسببين أساسيين لانتصار الإسلام، ودائماً يحثّ القرآن الكريم على الجهاد بالمال والنّفس، ويقول الإمام علي (عليه السلام):« اللهَ. اللهَ، فِي الْجِهَادِ بِأَمْوالِكُم وَأَنْفُسِكُم وَأَلْسِنَتِكُم فِي سَبِيلِ الله »[٣٤] .

---

[٣١] سورة التّوبة: (الآية: ٢٤).

[٣٢] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٧).

[٣٣] [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ٢٩).

[٣٤] [نهج البلاغة]: (الكتاب رقم: ٤٧).

أمّا أهداف الجهاد في الإسلام فيمكن استعراضها بإيجاز:

١ـــ لنشر الإسلام في العالم، وإنقاذ البشرية من حكومات الضّلال والكفر، يقول القرآن الحكيم:{ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله** }(٣٥) .

٢ـــ للدّفاع عن الدين والوطن والنّفس والحقوق:« مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَته فَهُوَ شَهِيدٌ »(٣٦) .

٣ـــ للإصلاح داخل الأُمة، يقول الإمام (عليه السّلام): «لأُقَاتِلَنَّهُم عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُهُم عَلَى تَنْزِيلِه »(٣٧) .

٤ـــ للدّفاع عن المظلومين والمحرومين، يقول تعالى:{ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالْمُسْتَضْعَفِينَ** }(٣٨) .

ويقول الإمام (عليه السّلام): « فَوَالله لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِه بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْش كُلُّهُ »(٣٩) .

---

(٣٥) سورة الأنفال: (الآية: ٣٩).

(٣٦) [تفصيل وسائل الشيعة]: الحر العاملي (ج١٥/ص١٢٠ـــ١٢١).

(٣٧) [كشف الغمة]: علي بن عيسى الأربلي (ج١/ص١٢١).

(٣٨) سورة النّساء: (الآية: ٧٥).

(٣٩) [نهج البلاغة]: (الخطبة رقم: ١٧٢).

المصادر

القرآن الكريم

[الحياة]: جريدة يومية تصدّر في لندن(ع:١٥أغسطس ١٩٩٧).

[نهج البلاغة]:.................................. الشريف الرضي

[خصائص أمير المؤمنين علي]:................ الحافظ النسائي

[بحار الأنوار]:......................... الشيخ محمد باقر المجلسي

[ذلكم الإمام علي]:.......................... السيد هادي المدرسي

[مجمع البيان في تفسير القرآن]:.. الفضل بن الحسن الطبرسي

[علي من المهد إلى اللحد]:...... السيد محمد كاظم القزويني

[الكامل في التاريخ]:....................................... إبن الأثير

[ترجمة الإمام علي بن أبي طالب]: (من تاريخ مدينة دمشق) .... الحافظ إبن عساكر

[نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة]:.. الشيخ محمد باقر المحمودي

[مصادر نهج البلاغة وأسانيده]:.......... السيد عبد الزهراء الخطيب

[المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم]:.... محمد فؤاد عبد الباقي

[المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة]:... كاظم محمد بن محمد دشتي

[الإلهيات]:................................. الشيخ جعفر السبحاني

[الكافي]:... الكليني الرازي

[السنن الكبرى]:.................................. الحافظ البيهقي

[السبيل إلى إنهاض المسلمين]:......... السيد محمد الشيرازي

[تاريخ الأمم والملوك]:............... محمد بن جرير الطبري

[تاريخ الخلفاء]:......................... جلال الدين السيوطي

[غرر الحكم ودرر الكلم]:............... عبد الواحد الآمدي

[شرح نهج البلاغة]:........................... إبن ابي الحديد

[اللهوف في قتل الطفوف]:............... السيد ابن طاووس

[صحيح مسلم]:.......................... بن مسلم القشيري

[حياة الإمام الحسين بن علي]:......... باقر شريف القريشي

[السيرة النبوية]:.. ابن هشام

[سيد المرسلين]:....................... الشيخ جعفر السبحاني

[نفس المهموم]:............................ الشيخ عباس القمي
[تفصيل وسائل الشيعة]:........................... الحر العاملي
[جواهر الكلام]:............................ الشيخ محمد النجفي
[كشف الغمّة]:......................... علي بن عيس الأربلي

الفهرس